سبيل الله

"قل هذه سبيلي أدعو إلى الله
على بصيرة أنا ومن اتبعني"
صدق الله العظيم

من هدى الراشدين

على بن أبي طالب . الإمام المظلوم

(... وإنني لأشكو اليوم حيف رعيتي)

على بن أبى طالب

محمد عبد الله حواء

موجه اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم « سابقا »

سَبِيلُ اللهِ

"قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ
عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي"

صدق الله العظيم

من هدى الراشدين

على بن أبى طالب . الإمام المظلوم

(... وَإِنِّي لَأَشْكُو الْيَوْمَ حَيْفَ رَعِيَّتِي)

على بن أبى طالب

محمد عبد الله حواء

موجه اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم « سابقا »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نبيّ الأمة وهاديها ، وعلى آله ومن تبعه .

تقديم

الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه مثال عال للمسلم المستمسك بمُثُل الإسلام العليا ، الحريص على تطبيقها كاملة فى حياة المسلمين عامة ، وحياته وآله خاصة ، كما نزلت على سيدنا : محمد ﷺ هدًى للناس ورحمة للعالمين ، يقدم الآخرة على الأولى ، ولا يغفل عنها لحظة ، ولا يميل إلى الدنيا ، ولا تُغريه دواعى الحياة وزخارف السلطان ، لأنها زائلة زائفة ، فلا يرضى الظفر بها والنجاح فيها على حساب دينه وأُخراه ، ولا يخاصم من أجلها ، ولا يضحى فى صراع خصومه بِمُثله وخلقه وتقواه ، ولا يهبط إلى ما هبط إليه الخصوم من الدنايا فى حربه والكيد له والدس عليه والكذب والدعاية ضده ، ولو رآها تؤدى إلى الغلبة عليهم والظفر بهم ، فالهزيمة لديه أحب من هذا النصر الرخيص المشترى بثمن غال ، هو التضحية بمبادئ الإسلام وشرف المسلم .. لقد لزم الحق والشرف الرفيع والمُثُل الإسلامية العزيزة

وألزم بهذا أتباعه ؛ فلق من المعاناة فى جانب الحق من العدو والصديق ما أضناه ، وأعاشه فى محنة قاسية ، راضياً بها صابرًا عليها ؛ لأنه طريق المسلم الوحيد ، ولأن الحق هو الرسالة ، ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ ومن ابتعد عن طريق الحق ضل وهلك . فهو طالب الحق والمقاتل ـ ولو وحده ـ من أجل الحق ، والداعى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وتفرق عنه من تفرق من الأتباع ، وعاداه من عاداه من الأشياع ، وكاده من كاده من الخصوم والمحاربين ، ونزلت به الشدائد والمحن ، وهو مستمسك بالحق ، وله يحيا ، وفى سبيله يعمل ، ويمنحه للعدو قبل الولى .

وتنكرت له الدنيا ولما تقبل ، وتخلى عنه الأتباع إلا القلة ، وهو هو علىّ ربيب رسول الله ورفيق الراشدين الثلاثة الملازم للنهج ، الحريص على الطريق القويم ، وعلى هدى المربى الأعظم الهادى إلى الرشد المتخلق بالقرآن سيدنا : محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فالقافلة كلها تسير فى نور القرآن والسنة ، وإن نبحتها كلاب الدنيا ، وإن هاجمتها ذئاب المطامع ووحوش الشهوات ، وإن قطع عليها الطريق طلاب المتاع الفانى والزهو والغرور !..

سبقه سيدنا : محمد صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتبعه الراشدون الثلاثة ، ويلحق بهم الراشد الرابع ، ليلتقى الجميع فى مقعد صدق عند مليك مقتدر !..

ظلمت الرعية عثمان، وعاش محنة الاتهام الكاذب، وقتل مظلوماً ؛ وعاش على المحنتين : محنة العدو ومحنة الصديق ، محنة الاتهام ومحنة الادعاء ، ولقى ربه شهيداً مظلوماً .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ . كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ .

١ — نشأته وصباه

١ — هو : علىّ بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وابن عم سيدنا : محمد صلى الله عليه وسلم . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، فهى ابنة عم أبى طالب . . وعلىّ هاشمى الأبوين ، وهى أسرة زاكية المعدن ، نبيلة النسب جمعت خلاصة ما فى العرب من فضائل ، وترفعت عما يشينهم من أوضار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ كِنانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْماعِيلَ ،
وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنانَةَ ،
وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ ،
وَاصْطَفانِي مِنْ بَنِي هاشِمٍ » .

لم تكن هذه الأسرة على حظ وافر من الثراء ، بل كانت فى قلة من المال مع شرف النسب ، فجمعت خير ما فى طبقات الناس من ميزات أبناء البيوت الكبيرة إذا فقدوا الثروة التى تغريهم بالسطوة ، وكانت لهم تقاليد كريمة ، بذلوا جهوداً مضنية ليحتفظوا بمكانهم ومتهم . وكذلك فعل عبد المطلب جد سيدنا : محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وعليٍّ كرم الله وجهه ، فكان سيد مكة ، وإن لم تستقر بعد موته فى عقبه ، بل بعد سنوات أصبح أبو سفيان من عبد شمس زعيم مكة .

أما أبو طالب فهو من رجالات مكة المعدودين ، كان معظماً فى أهله منعماً بين الناس ، فما يجسر أحد على إخفار ذمته .

وقد قال لابن أخيه محمد عند ما جمعهم بعد رسالته : ما أحبَّ إلينا من معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقاً لحديثك . وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى والله لا أزال أحوطك وأمنعك . غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

(فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ٤٣ ، ٤٥ ، ٧٨)

أما علىّ فقد سمَّته أمه حيدرة بمعنى اسم جده (أسد) ثم سماه أبوه عليًا فاشتهر به ، وكنيته (أبو الحسن) نسبة لابنه الحسن ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ورث عن بنى هاشم الصفات الجسدية والقوة البدنية ، وإنجاب النجباء ، والنبل ، والمروءة ، والشجاعة والذكاء .

وعلىّ أصغر أولاد أبى طالب ، وأكبرهم طالب ، يليه عقيل ، ثم جعفر ، ثم علىّ . وبين كل أخ وأخيه عشر سنين ، وكان عقيل أحبهم إلى أبيه .

وفى عام القحط ، تحمل آل عبد المطلب : أولاد أبى طالب تخفيفًا عنه إلّا عقيلا ، تركوه له ، فحمل حمزة جعفرًا ، وحمل العباس طالبًا ، وحمل سيدنا : محمد صلى الله عليه وسلم عليًا ، فشب فى حجره بينه وبين السيدة خديجة ، وعوضه عن إيثار أبيه لأخيه عقيل بحبه وعطفه .

كان فى طفولته مبكر النماء ، سابقًا لأنداده فى الفهم والقدرة ، لقد نهل من الدعوة النبوية وهو فى السادسة من عمره ، وهى التى يعز فهمها على أمثاله ، وكان مكين البنيان فى الشباب والكهولة حتى الستين .

قال ابن عبد البرّ : أحسن ما رأيت فى صفة علىّ رضى الله عنه : أنه كان ربعة من الرجال إلى القِصر .

أدعج العينين ، حسن الوجه كأنه القمر ليلة البدر : حُسنا .

ضخم البطن ، عريض المنكبين ، شثن الكفين ، عتدًا أغيد ،

كأن عنقه إبريق فضة !.. أصلع، ليس فى رأسه شعر إلا من خلفه. كبير اللحية، لمنكبه مشاش (المشاش : رأس العظم) كمشاش السبع الضارى! . لا يتبين عضده عن ساعده: قد أدمجت إدماجا !.. إذا مشى تكفأ، وإذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه، فلم يستطع أن يتنفس !..

وهو إلى السِّمَن ماهو، شديد الساعد واليد.. وإذا مشى للحرب هرول، ثبت الجنان : قوىّ شجاع، منصور على من لاقاه.

(الاستيعاب فى معرفة الأصحاب)

كانت قوته الجسدية غير عادية، بالغ الصلابة على الآفات، ربما رفع الفارس بيده فضرب به الأرض غير جاهد ولا حافل، أو أمسك نفسه وروحه، لم يُصارع أحدا إلا صرعه، ولم يبارز فارسا إلا قتله، يزحزح الحجر الضخم يعجز عنه الرجال، ويحمل الباب الكبير يُعيي قَلْبُهُ الأشداء، صيحته تخلع قلوب الشجعان، كان لايبالى الحر والبرد، فيلبس ملابس الصيف فى الشتاء، وملابس الشتاء فى الصيف لأن النبي ﷺ دعا له بإذهاب الحر والبرد عندما أصابه الرمد فى خيبر، وكان يحتملهما لقوة بنايته !.

دخل عليه رجل وهو يرعد فى الشتاء فى قطيفة.

فقال : يا أمير المؤمنين إن الله جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك ؟!

فقال : والله ما أرزؤكم (ما أكلفكم) شيئا. وما هى إلا قطيفتى التى خرجت بها من المدينة.

٢ – إسلامه

ولد علىّ داخل الكعبة ، وقد كرم الله وجهه عن السجود للأصنام فقد فتح عينه على الإسلام ، ولم يعرف قط عبادة الأصنام ، لأنه تربى فى بيت النبوة ، وعرف العبادة من صلاة النبى صلى الله عليه وسلم وزوجه خديجة ، وجمعت بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم قرابة قوية ومحبة أوثق من محبة القرابة ، فكان ابن عم سيدنا : محمد صلى الله عليه وسلم وربيبه الذى نشأ فى بيته ونَعِمَ بعطفه وبره .

وشاع أمر الدعوة ، وعلم به أبو طالب ، ونصر ابن أخيه ، ووقف إلى جواره ، وأمر ابنه عليا بمتابعة ابن عمه ونصره ، فأقبل الغلام على الإسلام دون تلجلج أو توان أو اضطراب . لأنه ألف عبادة محمد صلى الله عليه وسلم لربه قبل الإسلام بفترة طويلة .

واختلفوا فى سنه يوم أسلم مابين السابعة والسادسة عشرة ، ولعله أسلم فى العاشرة ، لأنه كان يناهزها عند إعلان الدعوة المحمدية ، وقد رفض الدعوة أبوه وأخوه عقيل : الذى حارب الإسلام ، وأسر يوم بدر ، وفداه عمه العباس ، ثم أسلم يوم الحديبية .

(عبقرية الإمام للعقاد ٢٦ — ٢٨)

وكان علىّ أول صبى تبع رسول الإسلام ، وإن كان أبو بكر أول رجل أسلم ، وخديجة أول امرأة ، وكان علىّ أول من صلى وراء النبي صلى الله عليه وسلم من الصبيان .

عن « حبة العرنى » ، قال : سمعت عليًا يقول : أنا أول رجل صلى مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم (المسند : ٢ / ٢٨٢) .

وعن إسماعيل بن إياس عن جده (عفيف) قال : كنت تاجرا فقدمت الحج ، فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة ، وكان امرأً تاجرًا ، فوالله إنى لعنده بمنى ، إذ خرج رجل من خباء قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها مالت ، يعنى قام يصلى ، قال : ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء ، فقامت خلفه تصلى ، ثم خرج غلام راهق الحلم من ذلك الخباء ، فقام معه يصلى ، قال : فقلت للعباس : من هذا يا عباس ؟

قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب : ابن أخى . قال : فقلت : مَنْ هذه المرأة ؟ قال : هذه امرأته : خديجة ابنة خويلد . قال : قلت : من هذا الفتى ؟ . قال : هذا علىّ بن أبى طالب : ابن عمه . قال : فقلت : فما هذا الذى يصنع ؟ . قال : يصلى ، وهو يزعم أنه نبى ، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى ، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر . قال : فكان « عفيف » يقول ـ وقد أسلم بعد ذلك ـ : لو كان الله رزقنى الإسلام يومئذ ، فأكون ثالثاً مع علىّ بن أبى طالب . (المسند : ٣ / ٢١٨ — ٢٣٠)

ولعل العباس لم يعلم باستجابة أبى : بكر صديق محمد ، فلم يذكره .. وهذا يدل على إسلام علىّ فى سن مبكرة فى نحو العاشرة .

وكانت الدعوة سرًّا ، ثم أعلنت بعد ثلاث سنين ، فكان عليّ يُقارب سن البلوغ والاحتلام .

وكان إيمانه إيمان صدق ، لنفسه ولغيره ، بل ولعدوه فى حياته كلها ، وجَدَ درعه عند نصرانى ، وهو أمير المؤمنين ، فخاصمه عند القاضى « شريح » ، وقال : إنها درعى ، ولم أبع ، ولم أهب .

فسأل « شريح » الرجل ، فقال : ما الدرع إلا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب .

فقال « شريح » : هل من بينة يا أمير المؤمنين ؟

فضحك عليّ ، وقال : أصاب « شريح » ، ما لى بينة .

فقضى « شريح » بالدرع للنصرانى . فأخذها ومضى ، وأمير المؤمنين عليّ ينظر إليه .

وعاد الرجل النصرانى ، فقال : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء : أمير المؤمنين يَدِيننى إلى قاضيه ، فيقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى « صفين » ، فخرجتْ من بعيرك الأورق .

فقال عليّ : أما إذ أسلمت فهى لك .

وشهد الناس هذا الرجل وهو من أصدق جند عليّ فى قتال الخوارج يوم « النهروان » . (عبقرية الإمام ٢٨ ، ٢٩)

٣ - مع النبي ﷺ

وصحب (علي) النبي صلى الله عليه وسلم حياته كلها وبلغ لديه مكانة عالية ، سئلت السيدة (عائشة) : من أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقالت : فاطمة : قيل : ومن الرجال ؟ قالت : عليّ ، إنه كان ما علمت صوّاما قوّاما . (عبقرية الإمام ١٢٨)

وهذا لا يناقض ما روى عن عمرو بن العاص ، قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم : أيّ الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة . فقلت : من الرجال ؟ قال : أبوها . (صحيح البخاري ٥ /٦)

فالأول هو رأى عائشة عما تراه من شعور رسول الله ، وهي تلمس مكانة فاطمة وعليّ عنده ، ولا تذكر نفسها وأباها ، ولا تراه يؤثرها وإياه عليهما . وأما الآخر فيصور النبي ﷺ شعوره نحو أحب الناس إليه عموما أو من غير آل بيته ، ويبدو أن الأربعة كانت لهم مكانة عالية في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحسبهم ذلك !..

وكان النبي يكرم أصحابه جميعاً ، حتى ليشعر كل منهم أنه وحده له المكانة العليا عنده ، ولقد أشعر عليا رضى الله عنه بهذه المكانة في أكثر من موضع .

جاء رجل إلى سهل بن سعد فقال : هذا فلان ـ لأمير المدينة ـ يدعو عليا « أبا تُراب » . فضحك سهل وقال : والله ماسماه إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان اسمه أحب إليه منه .

وسأل الراوى سهلاً : يا أبا عباس كيف ؟ قال : دخل علىّ على فاطمة ثم خرج فاضطجع فى المسجد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أين ابن عمك ؟ » قالت : فى المسجد . فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب من ظهره فيقول : « اجلس يا أبا تراب .. » مرتين . (صحيح البخارى ٥/٢٣)

وروى الإمام أحمد : أن ثلاثة عشر من أصحاب النبى ﷺ شهدوا أنهم سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير « خُم » « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ ، فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ » (المسند : ٢/٥٦ — ٧٥)

والمولى : الناصر والحليف . فعلىّ ناصر المؤمنين وحليفهم كرسول الله . وهذا يدل على مكانه من رسول الله . وقال علىّ : ... وإن مما عهد إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يبغضنى إلا منافق ، ولا يحبنى إلا مؤمن . (المسند ٢ / ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١)

لأن عليا دائما مع الحق ، فيبغضه أعداء الحق المنافقون ، ويحبه أنصار الحق المؤمنون . وقد غالى أعداؤه فى كراهته حتى نسبوا إليه ماليس فيه من الباطل ، وغالى بعض محبيه حتى وضعوه فى غير موضعه فهلكوا .

ولهذا قال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« فِيكَ مَثَلٌ مِنْ عِيسَى : أَبْغَضَهُ الْيَهُودُ حَتَّى بَهَتُوا أُمَّهُ ، وَأَحَبَّهُ النَّصارَى حَتَّى أَنْزَلُوهُ بِالْمَنْزِلِ الَّذِى لَيْسَ لَهُ ! »

وقال علىّ : يهلِكُ فىّ رجلان ، محب مفرط يقرظنى بما ليس فىّ ، ومُبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى . (المسند ٢ / ٣٥٤ ـ ٣٥٦)

وقال عليّ : ولكني أعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ما استطعت ، فما استطعتم من طاعة الله ، فحق عليكم طاعتي فيما أحببتم أو كرهتم . (المسند ٤/٥٥٦)

وهكذا كان حياته كلها مع الرسول ﷺ وبعده مجاهدًا عاملا بالكتاب والسنة ، حريصا على شهود المعارك كلها مع رسول الله ﷺ في بطولته وشجاعته . قال النبي ﷺ في يوم خيبر :

« لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ . »

قال : فبات الناس يدوكون (يتخبطون) ليلتهم : أيهم يُعطاها . فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها . فقال : أين عليّ بن أبي طالب ؟ فقالوا : يشتكي عينيه يا رسول الله . قال : « فأرسلوا إليهْ فأتوني به . » ، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له ! فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ! .

فقال عليّ : يا رسول الله . أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟

فقال : « اُنفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِساحَتِهِمْ ، ثُمَّ أُدْعُهُمْ إِلى الإِسْلامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِما يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ .

فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا :
خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ » .

وفى رواية : « لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله » ، أو قال : « يحب الله ورسوله ، يفتح الله عليه » (صحيح البخارى ٥ / ٢٢ ، ٢٣)

وقد خلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة فى غزوة تبوك فبكى لعدم صحبة النبي صلى الله عليه وسلم فى الجهاد ، وقال : أتخلفنى فى النساء والصبيان ، فواساه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّى بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَىٰ ؟ (أَىْ رِدْءًا) إِلَّا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِى » .

روت عائشة بنت سعد بن أبى وقاص أن علياً خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء ثنية الوداع ، وعلىّ يبكى يقول تخلفنى على الخوالف ؟ فقال : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى .. إلا النبوة ؟ » (المسند ٣ / ٣٧)

وفى رواية سعد قال : فأدبر علىّ كأنى أنظر إلى غبار قدميه يسطع ، وقال حماد : فرجع على مسرعا . (المسند ٣ / ٥٠)

وقال علىّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : ما كنت أحب أن تخرج وجهاً إلا وأنا معك . (المسند ٣ / ٧٤ ، ٧٧)

وقد بشره النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة ، فقال :

« ... وَعَلِيٌّ فِى الْجَنَّةِ » (المسند ٣ / ١٣٦)

وقد استحق هذه المنزلة لا لقرب قرابته ؛ فقد كان العباس عم النبي ﷺ أقرب إلى النبي منه ، ولكن لجهاده الطويل مع النبي ﷺ منذ صغره .

عن عليّ لما نزلت هذه الآية :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .

نادى النبي صلى الله عليه وسلم أهل بيتــــه .. فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا ، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ يَضْمَنُ عَنِّي دَيْنِي وَمَوَاعِيدِي ،

وَيَكُونُ مَعِي فِي الْجَنَّةِ ، وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ؟ ! » .

فلما لم يُجبه أحد لعدم القدرة عليه ، قال عليّ : أنا .

ويبدو أن النبي ﷺ دعا أهله أكثر من مرة ، فقد جاءت الدعوة السابقة التي ذكرتها بمضمونها فى المسند ، وجاءت الدعوة التالية :

روى عن عليّ قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة (ناقة جذعة : لها أربع سنوات) ويشرب الفرق (مكيال يسع ستة عشر رطلا ، وهو اثنا عشر مدا) قال : وصنع لهم مداً من طعام (نصف قدح) فأكلوا حتى شبعوا . قال : وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس . ثم دعا بغمر (قدح صغير) فشربوا حتى رووا .. وبقى الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب !.. فقال :

« يا بنى عبد المطلب : إنى بعثت إليكم خاصة ،

وإلى الناس كافة . . وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم !

فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ »

فلم يقم إليه أحد ، فقـــال : فقمت إليه ، وكنت أصغر القوم .
قال : فقال : « اجلس » ثلاث مرات . كل ذلك أقوم إليه ليقول لى :
« اجلس » . حتى كان الثالثة ضرب بيده على يدى .
(المسند : ٢ / ١٦٥، ١٦٦، ٣٥٢، ٣٥٣)

وظل علىّ إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أقام بمكة .

وأذن النبىّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة ، وأبقى أبا بكر لصحبته ، وعلياً لأمر مهم ، وهو أن ينام فى فراشه متسجياً ببرده .

ولمــا دخل المشركون الدار لم يجدوا سيدنا : محمداً ﷺ .

فسألوا عليًّا عنه ، فقال : لا أدرى ، أوَ رقيباً كنت عليه ؟ ! أمرتموه بالخروج فخرج ! . فانتهروه وضربوه ، وأخذوه إلى المسجد ، فحبسوه ساعة ، ثم تركوه .. فقام يردّ الودائع التى أمره رســول الله ﷺ بردها إلى أصحابها . (خاتم النبيين ١٠٣ ، ١٠٦)

قال ابن إسحق : ولم يعلم ـ فيما بلغنى ـ بخروج رسول الله ﷺ أحد ، حين خرج ـ يقصد حين نوى الخروج ـ إلا علىّ وأبو بكر وآله ، أما علىّ فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدى الودائع التى كانت عنده للناس .

ولم يـكن بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما يعلم من صدقه وأمانته .

وقد أوعز النبى ﷺ إلى علىّ بن أبى طالب فى هذه الليلة الرهيبا أن يرتدى بُرده الذى ينام فيه ، وأن يتسجى به على سريره .

وفى هجعة الليل خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى غفلة ، وأسل إلى دار أبى بكر . (فقه السيرة : ١٢٦ ، ١٢٧)

وفى المدينة - كما سبق - لم يتخلف عن معركة إلا غزوة تبوك ، فقد خلفه النبى صلى الله عليه وسلم على المدينة ، فبكى لتخلفه عن الجهاد . وقد تفرغ للجهاد ، مع السعى على رزقه بالعمل ، قبل وبعد زواجه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ففى شهر رجب من العام الأول للهجرة ، جاء علىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلس على استحياء ، دون أن يتكلم .

فسأله النبى ﷺ : « ما حاجة ابن أبى طالب ؟ » .

فقال : ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال رسول الله : « مرحبًا وأهلا » . وانصرف علىّ حائرا . .

فلما بلغ أصحابه قول النبى ﷺ ، قالوا له : يكفيك إحداهما .

وفى اليوم التالى قال للنبى صلى الله عليه وسلم :

أردت أن أخطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، فقلت : والله ما لى من شىء ! . ثم ذكرت صلته وعائدته وقرابته ، فخطبتها إليه .

فسأله النبى ﷺ : « وَأَيْنَ دِرْعُكَ الَّتِي أُعْطِيتَهَا يَوْمَ بَدْرٍ ؟ »

فقال : هى عندى . قال النبى ﷺ : « أَعْطِهَا إِيَّاهَا » .

فأحضرها ، واشتراها عثمان بأربعمائة درهم وسبعين .

فحملها علىّ ، ووضعها فى حجر النبى ﷺ ، فدفعها إلى بلال ليشترى ببعضها طيباً وعطرا ، ودفع الباقى إلى أم سُليم ، لتشترى جهاز العروس ، وكان خميلا (قطيفة مخملة) ، وقربة ، ووسادة حشوها ليف الإذخر ، وَرَحَيَيْنِ ، وسقاء ، وجرتين .

وعقد النبى صلى الله عليه وسلم عقد الزواج ، بحضور صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحضر لهم النبى صلى الله عليه وسلم وعاء التمر بعد العقد ، فأكلوا منه .

واحتفل بنو هاشم احتفالا لم يفعلوا مثله فى زواج ، ونحر حمزة شارفين (ناقتين) أطعم بهما أهل المدينة ، واستأجر علىٌّ منزلا خاصًا وزُفّت إليه فيه .. وقد زارهما النبى صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العشاء ، ودعا لهما بالبركة . وكانت فاطمة ابنة ثمانية عشر عاماً ، وكانت حياتهما أقرب إلى الخشونة .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لها عند خطبتها :

« إِنَّهُ سَيِّدٌ فِي الدُّنْيا ، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِنَّهُ أَكْثَرُ الصَّحابَةِ عِلْمًا ، وَأَفْضَلُهُمْ حِلْمًا ، وَأَوَّلُهُمْ إِسْلامًا » .

(بنات النبى ١٧٩ ـ ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٧) (المسند ٢ / ٥٧)

وكان علىٌّ رضى الله عنه يستقى لها الماء حتى تعب ، فقال لها ذات يوم : والله لقد سنوت (استقيت) حتى اشتكيت صدرى ! قال : وقد جاء الله أباكِ بسبى ، فاذهبى فاستخدميه (اطلبى خادماً) .

فقالت : وأنا والله قد طحنت حتى مجلت يداى (صلب وغلظ جلدهما) ! فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« مَا جَاءَ بِكِ أىْ بُنَيَّةُ ؟ »

قالت : جئت لأسلم عليك ... واستحييت أن تسأله ، ورجعت .

فقال : ما فعلت ؟ قالت : استحييت أن أسأله .. فأتياه جميعاً ..

فقال عليّ : يا رسول الله . لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى .

وقالت فاطمة : قد طحنت حتى مجلت يداى ، وقد جاءك الله بسبي وسعة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا أُعْطِيكُما وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ ،

لا أَجِدُ مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ !

وَلـكِنْ أَبِيعُهُمْ وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمْ أَثْمانَهُمْ . »

فخرجا . فأتاهما النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد دخلا فى قطيفتهما (غطاء لهما) إذا غطت رأسيهما تكشفت أقدامهما ، وإذا غطت أقدامهما تكشفت رءوسهما . فثارا !

فقال : « مَكانَكُما » .

ثم قالَ : « أَلَا أُخْبِرُكُما بِخَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمانِى ؟ » قالا : بلى .

فقالَ : « كَلِماتٌ عَلَّمَنِيهِنَّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ . »

فقالَ : « تُسَبِّحانِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ عَشرًا ، وَتُكَبِّرانِ عَشرًا ، وَإِذا أَوَيْتُما إِلَى فِراشِكُما تُسَبِّحانِ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ ، وَاحْمَدا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ ، وَكَبِّرا أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ » .

قال : فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية قالت فاطمة : رضيت من الله ورسوله (مرتين) .

(المسند ٢/١٤٩ ، ١٥٠ ، ٣٧٩) .

ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر أميرًا للحج ، كلف عليًا أن يقرأ على الناس ما نزل من سورة « براءة » كأمر جبريل ..

فقال علىٌّ : يا رسول الله . إنى لست باللسن ولا بالخطيب .

فقال النبي ﷺ : « لا بُدَّ أَنْ أَذْهَبَ بِها أَوْ أَنْتَ ؟

قال علىّ : إذن سأذهب أنا .

قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« فَانْطَلِقْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُثَبِّتُ لِسانَكَ وَيَهْدِي قَلْبَكَ » .

وسئل علىٌّ عما بعث به فى هذه الحجة ، فقال بأربع :

لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا ، لأن النبى ، ﷺ قال :

« لا يَحُجُّ بَعْدَ هٰذَا الْعامِ مُشْرِكٌ ، وَلا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيانٌ . »

(المسند ٢/٣١٩ ، ٣٢٠) .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم عليًا إلى اليمن ليدرّبه على القضاء ، فقال : يا رسول الله . بعثتنى إلى قوم هم أسنُّ منى ، لأقضى بينهم !

قال : « اذْهَبْ فَإِنَّ اللهَ تعالَى سَيُثَبِّتُ لِسانَكَ وَقَلْبَكَ » .

(المسند ٢ / ٧٣)

وعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم كيف يقضى ، فلا يكتفى بأحد الخصمين دون الآخر . . وقد نجح علىّ فيما بعثه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . (المسند ٢ / ٢٦٦)

ولم يخص رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بشىء من العلم ، ولا بسرّ من الأسرار . قال أبو جحيفة : سألنا عليا : هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء بعد القرآن ؟

قال : لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهم يؤتيه الله عز وجل رجلا فى القرآن ، أو ما فى هذه الصحيفة ، قلت : وما فى الصحيفة ؟

قال : العقل (الدية) وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

وفى رواية : أسنان الإبل (أى فى الزكاة) وشىء من الجراحات وتحديد حرم المدينة ، وفى رواية ثالثة أنه صعد بها المنبر معلقة بسيفه .

(المسند ٢ / ٣٥ ، ٤٤ ـ ٤٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٦)

وهى مما علمه النبي صلى الله عليه وسلم من السنن .

٤ — مع الراشدين الثلاثة

كان عليّ رضى الله عنه مع الراشدين الثلاثة قبله كما كان فى عهد رسول الله ﷺ الرجل الذى يعيش للأمة الإسلامية حياته كلها ، فكان معينا وناصحا مخلصاً أميناً ومشيرا ووزير صدق ، يُؤثر أمته وصلاحها على نفسه . كان مؤيدا للخلافة ومعينا فى رضا وسلامة صدر ، ما دامت هذه رغبة المسلمين ! فما قرأنا كلة غضب على الأئمة قبله ، أو ميل عنهم فى خطبه وكلامه ، بل وقف إلى جوارهم بعمله ورأيه ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه وفعاله . . ولم يبد منه ما يشتمّ منه رائحة الكراهية أو الحقد المكتوم .. وقد سمى ثلاثة من أولاده بأسماء : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، دليل الرضا والمحبة .. واصطفى محمد بن أبى بكر ، وكفله ورشحه للولاية .

(عبقرية الإمام ١٣٤ ، ١٣٥)

وقد عاش عليّ قبل الفتوح وبعدها عيشة الخشونة والشظف ، فلم يتجر ولم يتسع ، وإنما اكتفى بعطائه وأولاده ، واقفا نفسه على خدمة المسلمين . وكان موقفه من عثمان هو موقفه من الشيخين رضى الله عنهم ، حتى كانت الفتنة والخلاف بين عثمان وأهل الأمصار ، فكان موقفه موقف الناصح فى رفق وإخلاص ، حتى يستقيم أمر المسلمين ، كما كان فى عهد الشيخين .

وكان يحذر الخارجين من الفتنة والانقسام كما حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخان وعثمان ، وكان يردّهم عن الإمام ، ويحرص على أن يزيل الإمام ما يغضبهم مادام فى الإمكان ذلك .
ومن هنا كان يطلب عزل الولاة الذين يُشتكى منهم ، وكان مسلكه فى ذلك مسلك عمر بن الخطاب في عزل الولاة المشتكى منهم ، درءاً لشبهة ظلم الرعية ، كما فعل مع أهل الكوفة ! .. وكان يرى حسابهم على الصغيرة قبل الكبيرة ، كما كان عمر يصنع .

ولكن عثمان كان يختلف عن عمر وعن عليّ ، فكان يميل إلى اللين والتسامح ، ولا يؤاخذ إلا على خطأ ثابت واضح ، وكان يعفو ويسمح ، لأنه حييّ كريم ، وما دام الولاة لم يثبت عليهم شيء ، فهو مستمسك بهم ، وبخاصة عندما أصر المشاغبون فى الفتنة على عزلهم وتولية من يرغبون ، فأبى ، وقال : فلم كنت إماما ؟

وكان ذلك سبب الخلاف ، فكان مصدر شدة عليّ عليه فى النقاش معه ، كما نُقِل فى بعض الروايات ! .. وقد عرضت ذلك فى كتاب « عثمان بن عفان » ، فلم يكن عليّ معارضا لعثمان فى عنف كما صُوِّرَ فى موقفه من عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وعبد الله ابن سعد من ولاة عثمان ، فقد تبين أن ما روى بذلك كان من صنع أعداء عثمان السياسيين فى عصور الرواية التاريخية ، ولم يكن بالصورة التى عرض بها .

وفى حصار عثمان كان علىّ يرد عنه المخالفين، ويوفق بينه وبينهم. لكن كان مروان بن الحكم كاتب عثمان ومستشاره يرد الخليفة عن رأيه، وكان شيخا طاعنا فى السن، بلغ الثانية والثمانين، مما أفسد على علىّ رأيه وتدبيره، وأغضبه من عثمان.. واضطر إلى لزوم بيته يأسا من الإصلاح، تاركا ابنيه الحسن والحسين مع أبناء الصحابة يدافعون عن دار عثمان. ولما استنجد به عثمان طالبا الماء، كان أول من بادر إليه فى الغلس بالماء.. فرده الخارجون.. فألقى عمامته فى دار عثمان ينبئه باستجابته لنجدته أو منعه من يد الخارجين، ولام الخارجين على صنيعهم، وقال: إن ما تصنعون لا يصنعه المؤمنون ولا الكافرون، فإن الروم والفرس تأسر وتطعم وتسقى!.. فلم تمنعون عن الرجل الماء؟ وبم تستحلون قتله، وهو لم يعرض لكم بسوء؟! فأبوا وقالوا: ولا قطرة ماء، ولا لقمة خبز. فعاد محزونا إلى بيته، وأبى الإمامة والإمام محصور.

وما كان لعلىّ - بل ولا لأهل المدينة من الصحابة - قِبَل بمواجهة الخارجين المسيطرين على المدينة!.. وكانوا فى بادئ الأمر لا يزيدون عن ثلاثة آلاف، ولكن انضم إليهم العبيد والأعراب والغوغاء، فلم يكن لأحد سبيل على مدافعتهم، كما شهدت بذلك السيدة عائشة فيما ذكرتُ فى كتاب « عثمان بن عفان ».. بل وتعاطفت معهم القبائل، متأثرة بالدعاية المغرضة الواسعة ضد عثمان وولاته من المتآمرين!..

وكان لآخر لحظة يحاول التوفيق بين عثمان وهؤلاء الخارجين، حتى فوجئ بقتله وهو فى المسجد!..

فجاء إلى الدار وضرب الحسين : ابنه ، وشتم أبناء الصحابة : كيف يُقتل الإمام وهم بالباب ؟ ولم يدر أن الجناة تسلقوا الدار من دور الجيران ! . .

بل على الرغم من صعوبة موقف الصحابة أمام المشاغبين لم يجبن علىّ ! .. فلقد روى شداد بن أوس أن علياً رضى الله عنه خرج من منزله لابساً عمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متقلداً سيفه أمامه الحسن ، وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار ، حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على الخليفة ، فسلم علىّ ، وقال بعد تمهيد وجيز : لا أرى القوم إلا قاتليك !.. مُرنا فلنقاتل .

فقال الخليفة : أنشد الله رجلا رأى لله حقاً ، وأقر أن لى عليه حقاً أن لا يُريق فى سبيلى ملء محجمة (ما يحجم فيها الدم) من دم أو يريق دمه فىّ . فأعاد علىّ القول ، فأعاد عثمان عليه الجواب . .

فعلىّ أراد أن يقاتل ومن معه قوماً لا قِبَل له بهم ، ولو استشهد دفاعاً عن الإمام .. ولكن الإمام يتحرج أن يتحمل إراقة الدماء من المدافعين عنه ، أو المعتدين عليه !.. ويفضل أن تُراق دماؤه على أن يريق دماء المسلمين ، وأن يكون ابن آدم المقتول ، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفتن ! . .

وعاد علىّ إلى المسجد ، فصلّى وحده وترك ولده ، أو ولديه فى رواية أخرى ، مع عدة من أبناء الصحابة بباب عثمان حتى كان قضاء الله ، وحق عقابه على المعتدين !.. (عبقرية الإمام ٤٨ ــ ٥٧)

٥ - البيعة

روى عن جماعة أن المدينة بقيت بعد مقتل عثمان خمسة أيام ، وأميرها الغافقى بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر ، فلا يجدون ! يأتى المصريون عليًّا ، فيختبئ منهم ويلوذ بالحيطان (البساتين) فإذا لقوه ، باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم المرّة بعد المرّة .

وكذلك فعل طلحة والزبير مع من جاءه من أهل الكوفة والبصرة ، وأبى سعد بن أبى وقاص ، وقال عبد الله بن عمر : إن لهذا الأمر انتقاماً ، والله لا أتعرض له ... فظلوا حيارى ..

وكان أهل المدينة قد لقوا عليًّا فى سوقها ، فطلبوا بيعته ، فقال : لاتعجلوا ، إن عمر كان رجلا مباركا ، وقد أوصى بها شورى .. فأمهلوا ، يجتمع الناس ويتشاورون .

فارتدوا عنه ، وكان الناس حين لقوه قد بشوا فى وجهه وارتاحوا إليه ، وقد أتاه المهاجرون والأنصار مرارًا وقالوا : يا أبا الحسن : هلم نبايعك .

فقال : لاحاجة لى فى أمركم ، أنا معكم ، فمن اخترتم فقد رضيت به .. فقالوا : ما نختار غيرك ...

وذات مرة دخل حائط بنى عمرو ، وقال لصاحبه : أغلق الباب ، فجاء الناس فقرعوا الباب فدخلوا ، وفيهم طلحة والزبير ، فقالوا : يا علىّ . امدد يدك .. فبايعه طلحة والزبير .

وكان الثائرون بعد حيرتهم قد قالوا :

يا أهـــل المدينة : قد أجّلناكم يومين ، فوالله لئن لم تصرّفوا لنقتلن غدًا عليًا وطلحة والزبير وأناساً كثيرين .

فغشى الناس عليًا ، فقالوا : نبايعك ، فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوى القرابة . وفى رواية : من الفرس .

فقــال علىّ : دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمرًا له وجوه وله ألوان ، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول !

فقالوا : ننشدك الله ، ألا ترى ما نرى ؟ ألا ترى الإسلام ؟ ألا ترى الفتنة ؟ ألا تخاف الله ؟

فقال : أجبتــكم لما أرى ، واعلموا أنى إن أجبتــكم ركبت بكم ما أعلم . وإن تركتمونى ، فإنما أنا كأحدكم ! . .

إلا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ؛ فافترقوا على الغد . . وكانت هذه المقابلة يوم الخميس . (تاريخ الطبرى ٤ /٤٢٨ ـ ٤٣٧)

وقال محمد بن الحنفية (ابن على) : إن عليًا قال لهم :

لأن أكون وزيرًا ، خير من أن أكون أميرًا .

فقالوا : لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك ، قال : ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفيا ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ! . .

حتى كان يوم الجمعة، فحضر الناس المسجد ، وحضر عليّ وصعد المنبر وعليه إزار وطاق (طيلسان) وعمامة خز متوكئًا على قوس ، فقال : أيها الناس : عن ملإٍ إذن !.. إن هذا الأمر أمركم، ليس لأحد منه حق إلا من أردتم . . وقد افترقنا بالأمس على أمر ؛ فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد (أحقد) على أحد .

فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس .

وكان الناس قد خافوا من مخالفة الزبير وطلحة ، فبعثوا حكيم ابن جبلة في نفر من أهل البصرة أتى بالزبير، وبعثوا الأشتر في نفر من أهل الكوفة أتى بطلحة . وطلبوا من طلحة أن يبايع ، فقال : أبايع كرهًا ! وكان أول من بايع . .

ثم طلبوا من الزبير أن يبايع ، فقال : أبايع كرهًا !

وجاءوا بقوم كانوا قد تخلفوا ، فقالوا :

نبايع على كتاب الله في القريب والبعيد ، والعزيز والذليل .

فبايعهم عليّ .. ثم قام العامة فبايعوا ..

وأبى البيعة سبعة نفر : سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر ، وصهيب ، وزيد بن ثابت ، ومحمد بن مسلمة ، ومسلمة بن مرقش ، وأسامة بن زيد .

وقيل : لم يتخلف أحد من الأنصار . وقيل : رفض بيعته نفر قليل كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وزيد بن ثابت .

وقد أبَى عليّ إكراه هؤلاء الممتنعين ، لأنه لا خوف منهم .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٤٢٨ ـ ٤٣٠ ، ٤٣٣ ـ ٤٣٥)

هذا هو المقبول من الروايات المختلفة المتضاربة فى بيعة علىّ ابن أبى طالب ، اخترت ما اتسق منها .

قال أبو جعفر : وصار الأمر أمر أهل المدينة ، وكانوا كما كانوا فيه ، وتفرقوا إلى منازلهم ، لولا مكان النزّاع والغوغاء بينهم .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٤٣٥)

وكان بنو أمية قد هربوا ، إلا من لم يُطق الهرب ، وهرب الوليد ابن عقبة ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، إلى مكة ولم يبايعوا .

وكانت بيعة علىّ رضى الله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة .

وقد طلب إليه طلحة أن يوليه الكوفة ، والزبير أن يوليه البصرة ..

فقال علىّ : تكونان عندى فأتجمل بكما ، فإنى وَحِشٌ لفراقكما (متألم لفراقكما) .

وقد ظهرا إلى مكة بعد مقتل عثمان بأربعة أشهر .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٤٢٩)

٦ ـ خلافة عليّ

(١) اتساق الأمر لعليّ :

روى الحسن أول خطبة لعليّ بعد تمام الأمر له : بعد الحمد والثناء على الله ، والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم :

إن الله عزّ وجلّ أنزل الكتاب هاديا ، بيّن فيه الخير والشر . .

فخذوا بالخير ودعوا الشر :

الفرائضَ أدّوا إلى الله سبحانه يُؤدِكم إلى الجنة .

إن الله حرم حُرَما غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحُرَم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين . والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق . لا يحلّ أذى المسلم إلا بما يجب .

بادروا إلى العافية ، فإن الناس أمامكم ، وإن ما من خلفكم الساعة تحدوكم . تخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر الناس أخراهم .

اتقوا الله ـ عبادَه ـ في عباده وبلاده . . إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله عزّ وجلّ ولا تعصوه . .

وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه . .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٤٣٧)

يدعو الأمة إلى الاستمساك بكتاب الله عزّ وجلّ ، ومحوره : الخير والشر ، فليأخذوا بالخير وليدعوا الشر . . وطلب أداء الفرائض

ليستحقوا الجنة . . وذكر أن ما حرمه الله معلوم للناس ، وأهمه حرمة ، الإنسان ، وسلامته من الأذى باليد واللسان ، إلا بالحق .

أما عقيدة المسلمين ، فأهمها الإخلاص والتوحيد .

ثم ذ كّرَ الناسَ بالآخرة ، التى تحثهم على السعى ، ودعاهم إلى الأخذ بأسباب النجاة فيها ، وذلك بطاعة الله وعدم عصيانه ، وبالأخذ بالخير وترك الشر ، وبأداء ما وجب من مسئوليات فى العباد والبقاع والبهائم ، وليذكروا فضل الله عليهم .

فهى خطبة جامعة لخصال الخير الذى تحرص عليه الأمة الخيّرة ، وعلى البعد عن الشر ، الذى يؤدى إلى الشقاء .

(٢) قضية عثمان :

ولما عاد إلى منزله اجتمع إليه طلحة والزبير ، فى عدة من الصحابة فقالوا : يا علىّ : إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هـــذا الرجل ، وأحلّوا أنفسهم (برءوا أنفسهم وأباحوا لها دمه) .

فقال علىّ : يا إخوتاه ، أنا لست أجهـــل ما تعلمون ، ولـكن كيف أصنع بقوم يملـكوننا ، وفى رواية (يملـكوننا) ولا نملـكهم ؟! ها أنتم أولاء قـــد ثارت عُبدانـكم ، وثابت إليهم أعرابكم هم خلالـكم يسومونـكم ما شاءوا !.. فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء مما تريدون ؟ قالوا : لا

قال : فوالله ، لا أرى إلا ما ترون إن شاء الله ، إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن هؤلاء الثغام نادّة ، وذلك أن الشيطان لم يشرّع شريعة قط فيبرح الأمة إن أخِذَ بها أبدًا !..

إن الناس من هذا الأمر إن حُرِّك على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق .

فاهدءوا عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٤٣٧) .

فأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يرون أن عثمان قتل مظلومًا ، وأنه لا بد من القصاص حتى تستقيم أمور الدين ، ولا تضيع الحقوق والدماء ، وحتى لا يثور الساخطون بمن يسخطون عليه فيقتلونه .

وأقرّ علىّ رأيهم ، لكن بيَّن لهم الموقف على حقيقته ؛ فالسلطان انتقل بالبيعة إلى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه فى الواقع بأيدى المشاغبين من الأمصار ، يُؤازرهم العبيد والأعراب ، يفعلون بالمدينة ما يشاءون !.. لقد سيطرت أخلاق الجاهلية ، وعاد الناس إلى العنف ، واستمسك الشيطان بما نجح فيه ! .

ثم بيَّن مواقف الناس من القصاص ، ودعاهم إلى الانتظار حتى تهدأ الأمور ، ويقوى سلطان الخلافة ، فينظر فى القضية بالحق والعدل .. ووافقه عامة الصحابة على ذلك الرأى .

ثم حاول ـ مع هذا الوضع ـ أن يحقق مقتل عثمان ، فلم يستطع ؛
: أظهر المشاغبون السخط والتضامن ، وقالوا جميعاً : نحن قتلة عثمان .

وقيل : إن عشرة آلاف رفعوا سـيوفهم .

فصار « عليٌّ » إلى الانتظار .

وكان من بين المتهمين محمد بن أبى بكر ، وكان ربيب علىّ ؛
سأله « علىّ » : أنت قتلت الإمام ؟ ! فنفى .. وأقرته « نائلة » :
وج عثمان على إنكاره . (الفتنة الكبرى ٢ / ١١ ، ١٢)

(٣) سياسة علىّ :

استقبل أهل المدينة خلافة علىّ فى وجوم وحزن وخوف ، حيث
لا توجد قوة تحمى المدينة ، بعد أن عاد جنود الأمصار عند ما علموا
بمقتل عثمان ، ولمّا يصلوا إلى المدينة ، وعاد أهل موسم الحج إلى بلادهم ،
بقى المشاغبون مسيطرين ، والخليفة والمهـاجرون والأنصار أسارى
فى أيديهم حتى عجزوا عن التحقيق فى مقتل عثمان .

وعمال عثمان لن يخضعوا للخلافة الجديدة جميعاً ، وبخاصة معاوية
الذى يطيعه أهل الشام ، وله مكانة فى بنى أمية ، فالخوف من فساد
الأمر بينه وبين علىّ قائم مسيطر .

ولـكن عليًا له مكانة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى قلوب
الصحابة له مكانة عالية ، وله ماضيه فى الجهاد . .

وكان عمر يراه أشبه الناس به فى شدته فى الحق ، وأنه قادر على أن يسير بالناس فى الطريق السوىّ ، إذا ولّوه ، وكان الصحابة لهذا يطمئنون ويرضون .

فإذا كانت الدنيا قد فسدت ، واضطربت الأمور ، وكثر الشر ، وطغت الفتنة المظلمة ، فإن عليًّا أمام هذه الأمور العظام ، قد وجد نفسه أحسن ما يجد الرجل نفسه : صدق إيمان بالله ، ونصح للدين ، ووفاء للحق ، وقيام به ، واستقامة على الطريق ؛ فلا يدهن فى أمر الإسلام ؛ بل يرى الحق ويمضى فيه : لا يحفل بالعاقبة ، ولا يلوى على شىء غير الحق ، لا يعنيه فى النهاية نجاح أو إخفاق ، أو موت أو حياة ؛ بل يعنيه إرضاء ربه ، وراحة الضمير ، والقيام بالحق .
(الفتنة الكبرى ٢/١٥ـ١٨)

(٤) علىّ وقريش :

اشتد علىّ على قريش ، وحال بينهم وبين الخروج من المدينة ، وذلك لحرب بنى أمية . وتفرق القوم ، بعضهم يقول : علىّ أمثل وأقدر ، ويترك إليه أمر هؤلاء الأشرار ، حتى يتم الاقتدار عليهم . وبعضهم يقول : نقضى الذى علينا ولا نؤخره ، إن عليًّا لمستغن عنا برأيه وأمره ، وإنه سيكون أشد على قريش من غيره .

وبلغ ذلك عليًّا ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر فضلهم ، وحاجته إليهم ، ونظره لهم ، وقيامه دونهم ، وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك . والأجر من الله عز وجل ، (فسلطانه فى خدمتهم ، والاستعانة بهم) . (تاريخ الطبرى ٤/٤٣٧ ، ٤٣٨)

(هـ) علىّ والطارئون :

ونادى علىّ فى ذلك الموقف ، يطلب عودة العبيد إلى ساداتهم ، قائلاً : برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه .

وهنا ضاق أتباع « عبد الله بن سبأ » والأعراب ، وتذامروا قائلين : سيكون مثلها لنا غدا ، ولا نستطيع أن نحتج .

وخرج علىّ فى اليوم الثالث ، فقال : أيها الناس .. أخرجوا عنكم الأعراب ، وقال : يا معشر الأعراب ، ألحقوا بمياهكم .

فأبت السبئية ، وأطاعهم الأعراب . (ومرجع هـذا عدم وجود الجندية الثابتة فى ذلك الحين) .

ودخل علىّ بيته ، ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : دونكم ثأركم ، فاقتلوه .

فقالوا : عشَوا عن ذلك (أعرضوا عنه) ، وذلك لعجزهم عنه .

فقال : هم والله أعشى وآيس . وقال :

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم
أمرتهمو أمرا يُديخ الأعاديا

وقال طلحة : دعنى ، فلآت البصرة ، فلا يفجئوك إلا وأنا فى خيل .
وقال الزبير : دعنى ، فلآت الكوفة ، فلا يفجئوك إلا وأنا فى خيل .
فقال لكل منهما : حتى أنظر فى ذلك .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٤٣٨)

فعلىّ حاول أن يخلص المدينة من العبيد والأعراب ، ثم يعين بعدها أهل الأمصار ، فرفض ذلك السبئيون . وتبعهم العبيد والأعراب فى البقاء. واستبان لعلىّ العجز عن السلطان وأخذ ثأر عثمان ، واستبان ذلك للصحابة حين أذن لهم بأخذه . وطلب كل من طلحة والزبير الاستعانة برجال الكوفة والبصرة . فأمهلهم حتى يفكر وينظر ، فهو يريد أن يتصرف بحكمة وحذر وبصيرة ولا يتعجل ، وأحزنه ما عليه بعض قومه من الخلاف له مما يعطل رأيه ويعجزه . ولعله كان يخشى عواقب خروجهما إلى الكوفة والبصرة ، وما قد يثيره فيهما من طموح إلى السلطان ، وبخاصة أنهما طلبا هذه الولاية فأباها عليهما . لأنه أراد أن يسير سيرة (عمر) فى بقاء كبار الصحابة معه فى المدينة وزراء يعينونه ، ويقيهم الفتنة . ولعله أخلف بذلك الرفض للتولية ما أمّلا فيه ، ولكنهما لم يخرجا من ذمة الخلافة والبيعة ، كما سيأتى إن شاء الله .

(٦) علىّ والعمال :

ذكر الطبرى أن المغيرة بن شعبة - وهو من دهاة العرب - علم بالمجلس السابق ، فجاء إلى علىّ ، وقال له : إن لك علىّ حق الطاعة والنصيحة .. وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى الغد ، وإن الضياع اليوم تُضَيِّع به ما فى غد : أقرر معاوية وابن عامر ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى تأتيك طاعتهم وبيعة الجنود ، ثم استبدلتَ أو تركتَ .

قال: حتى أنظر !. فعاد إليه فى الغد، فقال: إنى أشرت عليك بالأمس برأى، وإن الرأى أن تعاجلهم بالنزوع، فيعرف السامع من غيره ويُستقبل أمرك.

ودخل ابن عباس فعلم خبره - وكان داهية أيضا - فقال: أمس نصحك، وأما اليوم فقد غشك.

قال: فما الرأى ؟.

قال: كان الرأى حين قتل الرجل - أو قبل ذلك - أن تأتى مكة فتدخل دارك وتغلق عليك بابك. فإن كانت العرب جائلة مضطربة فى إثرك، لا تجد غيرك !..

ثم ذكر له أن بنى أمية سيلزمونك بدم عثمان، ويشبِّهون على الناس، وهو وهم لا يقدرون عليه ولو صارت إليهم الأمور.

وفى رواية أن عليا رد على المغيرة بقوله: والله لو كان لى ساعة من نهار، لاجتهدت فيها رأيى، ولا وليت هؤلاء، ولا مثلهم يُولّى.

وقال علىّ لابن عباس: ولم نصحنى المغيرة ؟

فقال: لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى ثبتّهُم لم يبالوا بمن ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ الأمر بغير شورى، وقتل صاحبنا.. ويؤلبوا عليك، فينتقض أهل الشام والعراق، ولا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك.

قال علىّ: ما أشك أن فى إقرارهم خيرا فى عاجل الدنيا لإصلاحها، وأما الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان، فوالله لا أولى منهم أحدا أبدا.

وعرض عليه ابن عباس أن يلزم داره أو ماله بينبع، ويغلق عليه بابه حتى تعود إليه العرب . فأبى علىّ ، وطلب إليه أن يلى الشام . فخاف من انتقام معاوية . وطلب إليه أن يُمَنِّيَ معاوية ، فأبى علىّ .

وفى رواية أن ابن عباس قال له : أنت رجل شجاع والحرب خدعة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنك لو أطعتنى لأصدرن بهم بعد وِرد ، ولأصيرنهم فى غير نقصان عليك ولا إثم .

فقال علىّ : لست من هنياتك وهنيات معاوية فى شىء ، فأطعنى .

فقال : إن أيسر مالك عندى الطاعة .

(تاريخ الطبرى ٤/٤٣٨ — ٤٤١)

أما البلاذرى ـ كما ذكر د . طه حسين ـ فقد روى أن المغيرة أشار على علىّ بتثبيت معاوية وتولية طلحة والزبير : مِصْرَيِ العراقِ ، ليستقيم له الأمر ، وعارضه عبد الله بن عباس عندما قدِم من الحج ، لأن مصرى العراق هما عينا المال ، فيضيقان على الخليفة ، ولأن ولاية معاوية بالشام تضر عليا (الفتنة الكبرى ٢ ـ ٢٤) .

وذكر الرواية الثانية للطبرى أيضاً .

أما الأستاذ العقاد ، فقد أخذ بالرواية التى تقول : إن ابن عباس عرض عليه أن يولى طلحة البصرة ، والزبير الكوفة ، فقال علىّ : إنهما عينا المال والرجال . وقال : لو كنت مستعملا أحدا النفع ، لاستعملت معاوية على الشام .. ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى . (عبقرية الإمام ٦٢)

وهكذا تتضارب الروايات وتختلف : شأنَ أخبار هذه الفترة التى ابتليت بالفتنة ، واستساغ القائلون فيها مناصرة آرائهم باختراع الأقاويل .

ولنا أن نختار منها ما يناسب أخلاق القوم .

والمقبول أن ينصح المغيرة بن شعبة بالإغراء الدنيوى وبالخديعة والمكر ، لأن هذا مقبول لديه .

أما ابن عباس فيرى الكيد المباح ، فلا مانع من تثبيت معاوية إلى حين التخلص منه ، ولعله يرى تولية طلحة والزبير إرضاء لهما .

أما القول بالاعتزال بعد ما مضى من الخلافة فلا يقبل ولا يعقل ، وقد بايع الناس علياً ، كما بايعوا أبا بكر وعمر ، بل وجد ممثلون لأهل مصر والعراق والحجاز ولم يبق إلا الشام ، ومن ثم كتب علىّ إلى معاوية يطلب البيعة ، فلما أبى اعتبره علىّ من الخارجين .

وبالجملة : رفض علىّ هذه المقترحات ، وأصرّ على عزل ولاة عثمان ، فما مصدر هذا الإصرار ؟!

(١) علىٌّ رجل يؤثر الحق والصراحة فى القول والعمل ، كما هو أمر المسلم الحق ، فلا يقبل الكيد والتربص إلا للعدو ، لا للمسلمين .

وعلىٌّ كعمر ، لا يقبل اللين مع العمال ، بل يؤاخذهم على أقل هفوة . وقد تجرأ هؤلاء الولاة على عثمان ، فتصرفوا بغير إذنه ، واتهم بعضهم ولو أنه لم يثبت عليه الاتهام . وبعضهم ليس بالمستوى الدينى المطلوب

من الولاة وهو يعرفهم . فكان من رأى علىّ عزلهم ، دفعاً للشبهات وأخذاً باليقين ، وهو يؤمن كعمر بالمساواة بين جميع المسلمين ، فلا فضل لقريش فتختص بالولاية .. بل إنه يحارب العصبية ، ولهذا أحبه ووالاه عرب اليمن ، والعرب من غير قريش .. وكان قد أخذ وعداً من عثمان مراراً بعزلهم — لا . لاتهام فى ذمتهم ثبت عليهم ، ولا لظلم بان أمره ، فهو لا يستطيع اليوم تثبيتهم ، وإلا لناقض نفسه ، وأغضب الذين وعدهم بعزل ولاة عثمان أيام عثمان !.. ثم هو عاد إلى سياسة عمر فى تجنيب كبار الصحابة ومن طمح إلى الولاية غواية الولايات والعصبيات ، ولهذا رفض تولية طلحة والزبير .

(الفتنة الكبرى ٢ / ٢٤ ، ٢٥) (عبقرية الإمام ٦٢)

فالذى منع عليًا هو مبادئه الإسلامية مهما كانت النتائج ، لأنه يريد أن يضرب للناس مثلا فى تطبيق الإسلام ، وهو كان يرى أن ما اقترح عليه يحقق مصالح الدنيا باستقرار الأمور له ، لكن : هل كان ذلك سيحقق مصالح الأمة الإسلامية ؟ .

هل كان معاوية سيعتبر نفسه والياً خاضعاً لسلطان الخلافة يأتمر بأمر الإسلام ، كما كان يفعل عمر مع الولاة ، ويلزمهم بأدق أمور الإسلام ؟ !

إن عليًّا رأى أن ذلك لن يتحقق كما يريد ويرى ، ومن ثم رفض بقاءه ولو ساعة واحدة . .

وأما إذا أقر مبدأ طلحة والزبير فى تولية من طلب الولاية ، فإن هذا أيضا سيغلّ يد الإمام فى تصريف الأمور ، وفتح الطريق أمام تطلع المتطلعين ، وهى سياسة عمر مع الولاة .

وقد اختار علىّ عماله على الأمصار ، محاربا العصبية ، كما صنع عمر ، فأحسن الاختيار .

لكن لا يقال : إن طلحة والزبير قد غضبا ، لأنهما لن يكون لهما إلا عطاؤهما ، وأنهما لن يظفرا بسماحة عثمان ولينه .. فما كان طلحة والزبير يريدانه هو أن يعرف علىّ لهما مكانهما ، وأن يستعين بهما ! ولم يكونا فى حاجة إلى المال ، فقد كانا واسعى الثراء من التجارة ، لا العطاء . وما كان الحكم فى عهد عثمان يعود عليهما بنفع مادى ؛ ولكن للأسف حالت مبادئ علىّ فى الحكم دون إرضاء تطلعهما ، وهذا أمر آسف له .

اختار علىّ للبصرة عثمان بن حنيف الأنصارى ، وأرسل أخاه سهل بن حنيف إلى الشام ، فردته خيل الشام ، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصارى إلى مصر ، وتمكن من دخولها بالاحتيال ، وأبقى أبا موسى الأشعرى فى الكوفة ، وأخذ له البيعة وهو يمنى ، وعبيد الله بن عباس لليمن ، وخالد بن العاص بن هشام المخزومى لمكة ، لكن رده أهلها لمكان الفارين إليها من بنى أمية .

(الفتنة الكبرى ٢ / ٢٥ ، ٢٦ . تاريخ الطبرى ٤ / ٤٤٢)

(٧) عليّ ومعاوية :

أرسل عليّ مسوّد بن مخرمة بكتاب إلى معاوية ، يطلب إليه أن يبايع ، وأن يقبل إلى المدينة فى أشراف الشام ، ولم يذكر له أمر التولية ، فلم يجب الرسول ، وكلما استنجزه أمهله . وبعد مضى ثلاثة أشهر من مقتل عثمان ، دعا معاوية رجلا من بنى عبس ، دفع إليه طومارا مختوماً عنوانه : (من معاوية بن أبى سفيان إلى عليّ بن أبى طالب) ، وأمره إذا دخل المدينة أن يرفع الطومار ، ليقرأ الناس عنوانه ، وبذلك يتشوقون لمعرفة ما به ! وفض عليّ الطومار ، فلم يجد به إلا : بسم الله الرحمن الرحيم . وسأل العبسى عما وراءه ، فطلب الأمان ، فأمّنه ، فذكر له - كما قال له معاوية - إن سبعين ألف شيخ بالشام يبكون عند قميص عثمان المنصوب على منبر دمشق (ولا أدرى كيف أتى به ، وعثمان قد دفن بثيابه بعد ثلاثة أيام) ، وإن أهل الشام يطلبون ثأره ، ويتهمون عليًا .

فقال عليّ : ألستُ موتورا لترة عثمان ؟ اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان ! نجا والله قتلة عثمان ، إلا من شاء الله !

ودعا عليّ أعلام الصحابة ، وبينهم طلحة والزبير ، وأنبأهم بما صنع معاوية ، وأن الخير فى قتل الفتنة قبل أن تستشرى ، وأن يغزوا أهل الشام قبل أن يغزوهم ، وكأنه لم يجد من الناس جوابا مقنعا ولا حماسا . . واستأذن طلحة والزبير فى أن يلحقا بمكة معتمرين .

فأذن لهما ، بعد أن تأكد منهما أنهما خرجا للعمرة فحسب ، وجعل عليّ يتهيأ للحرب .

(الفتنة الكبرى ٢ / ٢٦ ، ٢٧ . تاريخ الطبرى ٤ / ٤٤٣ ، ٤٤٤)

(٨) أخبار مكة :

بعد انتهاء موسم الحج ، لحق بعض الحجاج بالمدينة فبايع عليًا ، وبلغ بعضهم أخبار المدينة ، (وما كان يُشاع عن خذلان عثمان وإهدار دمه) ، فرجع إلى مكة معتزلا ، أو رحل إلى بلاده . ولجأ إلى مكة بعض المعتزلين للفتنة كعبد الله بن عمر ، ولجأ إليها مخالفو عليٍّ من بنى أمية من : مروان ، وسعيد ، والوليد ، وعبد الله بن عامر ، وكانت بها زوجات النبي ﷺ ، ومنهن حفصة بنت عمر ، وكانت عائشة زوج النبي ﷺ قد أخذت طريقها إلى المدينة ، فعلمت ببيعة عليّ .

ويقول د . طه حسين : إنها ضاقت ضيقا شديداً ، وقالت إنها تؤثر انطباق السماء على الأرض ، على أن لا يتم ذلك الأمر ، ورجعت إلى مكة ، وكانت تكره عليًا لموقفه فى حديث الإفك ، وقوله للنبي ﷺ : طلقها . النساء غيرها كثير .

وكانت تنكر على عثمان ، وعلى عماله . وظن كثير من الناس ، أنها كانت تحرض على الثورة عليه . وعادت إلى مكة مغضبة ، واتخذت لها من الحِجر سترًا تحدث الناس من ورائه ، تُنكر قتل عثمان .

وفي أثناء ذلك قدم خالد بن العاص ، والياً على مكة ، فرفض الناس بيعته ، وألقوا بالكتاب فى بئر زمزم بتأثير عائشة ، ثم أقبل طلحة والزبير ، وانضما إلى المخالفين .

(الفتنة الكبرى ٢ / ٢٨ — ٣٠)

ولنا فى موقفه من عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ وقفة .

(٩) سُمار الفتنة :

كان عثمان رضى الله عنه يحذر فتح باب الفتنة فى عهده ، وهو يرى أنه لابد مفتوح ويقول : رحم الله عثمان إذا مات ولم يحركها !..

وكان يلجأ إلى الرفق والتسامح ، ويدعو عماله إلى الرفق والمتابعة حتى لا تتحرك الفتنة ، وقد قدم حياته ثمنا لدرء الفتنة ، وأبى على عليّ وصحابة رسول الله ﷺ قتال الخارجين عليه ، حتى لا يفتح ذلك الباب على المسلمين ، وحذّر من قتله قتلتَه قائلا : إنكم لن تصلوا بعدى جميعا ، ولن تحاربوا عدوا جميعا ، ولن تقسموا فيئكم بينكم .

ومع ذلك قتلوه وفتحوا بذلك باب الفتنة على مصراعيه ، وتولى عليّ بن أبى طالب الخلافة بعد سبعة أيام أو ثمانية من مقتل عثمان والفتنة قائمة !.. وما الفتنة إلا اضطراب الآراء واختلافها حول الأمور وعدم تبين الحق من الباطل والخطأ من الصواب ، وفقدان الثقة فى قادة الأمة ؟!. وقد رأينا الإمام عليا يسير فى خضم الفتنة بخطوات بصيرة ثابتة حكيمة شجاعة ، ولكن : هل التف حوله الجميع وآزروه وأطاعوه ؟

صوّر موقفه الحزين أمام كبار الصحابة حين دعاهم ، وخيبة أمله في الناس استشهادُه بهذا البيت :

ولو أن قومي طاوعتني سراتهم .·. أمرتهمو أمرًا يُديخ الأعاديا

لكن قومه لم يطيعوه ، ورأى أن الفرصة غير سانحة للقضاء في مقتل الإمام ، لمكان هؤلاء الخارجين وسلطانهم على المدينة .. لكنهم يطالبونه بالثأر العاجل .. يطلب جلاء العبيد والأعراب وعودة الطارئين من المدينة ، ولكنه لا يجد سبيلا أمام رفضهم العودة .. والطارئون يرون ألا ثأر لعثمان قِبَلَهُمْ ، وأهل المدينة يطلبون هذا الثأر منهم ، ويخشى الناس من مخالفة عمال عثمان . . وينصح الدهاةُ باسترضائهم واسترضاء طلحة والزبير بالولاية ، وعليّ يرى العودة إلى سياسة عمر في العزل والتولية ، واختيار أصلح الناس من كافة المسلمين وبقاء كبار الصحابة بالمدينة وزراء للخليفة .

ويُغضب ذلك الطامحين للولاية ، ويهرب ولاة عثمان ومن غضب إلى مكة ، وتصبح ملجأ لألوان الرافضين : منهم المعتزل للفتنة ، واعتزاله ضرر للحق إذ يترك الميدان للباطل خاليا منه ومن الحق . ومنهم المعترض الحاقد كأنصار بنى أمية ، وعليّ لم يحارب أنصار عثمان وعماله . ومنهم الحائر ، لا يعرف أين الطريق ؟ !

وفى أعقاب ذلك كان إعلان معاوية رفض الخلافة والطاعة ، واشترط تقديم رأس عليّ ليدخل مع الجماعة !.. وما أراد إلا الفرقة والخلاف !..

واتخذ من دم عثمان تعلّةً يخدع بها الناس الغاضبين للإمام المقتول ظلماً واقتراء ، بدليل أنه بعد أن آل الأمر إليه لم يثأر لعثمان .. لقد دخل دار عثمان ، وهو خليفة ، فناحت إحدى بناته : وا أبتاه ، فقال : يا ابنة أخى ، إن القوم قد أعطوا عهدا على دخل ، ورضينا منهم على كره ! ولأن تكونى ابنة عم أمير المؤمنين ، خير من أن تكونى واحدة من الناس ..

وبذلك ذهب دم عثمان ، وذهب الحماس له بعد أن صار معاوية خليفة ، لكن الناس فى أيام علىّ لا يدركون ذلك كله ، ويتساءلون حائرين : من منهما على حق ، ومن على باطل ؟ !

ولم يقف أمر علىّ عند ذلك الحد ، بل وصلت الفتنة وسرت بين أتباعه ، وتفرقوا ، وخرج آلاف منهم عليه ، والناس فى حيرة : مَنْ على خطأ ، ومن على صواب ؟ !

كل ذلك وعلىٌّ يعرف طريقه ، وأين يضع قدمه ، ويدعو إلى ما يعرف من الحق ويُبَصِّرُ به ، فيقف إلى جواره آلاف ، وتصم آذانها عنه آلاف ، وتحار آلاف ..

إنها الفتنة . . التى قدّم فى خاتمتها حياته ثمنا لنهايتها ، كما قدم قبله عثمان حياته ، حتى لا تفتح أبوابها . . وانتهت بانتهائها معالم الخلافة الرشيدة ، وأصبحت ملكا عضوضا ، يعتمد على المال والشهوات وسفك الدماء ، وخاضت الفتنة بأصحابها فى سبيل ذلك جولات :

١ — جولة الجمل . ٢ — جولة صفين .

٣ — جولة الخوارج . ٤ — مقتل علىّ .

فلنشهد كل جولة من هذه الجولات، لعل فيها عبرة تعيد المسلمين إلى طريق الرشاد .

١ — معركة الجمل .

بينما على يستعد لحرب الشام ، فأعطى محمد بن الحنفية اللواء ، وولى عبد الله بن عباس ميمنة الجيش ، وعمر بن أبي سلمة ميسرته ، وفي المقدمة أبا لباب بن عمر بن الجراح ، واستخلف على المدينة قثم بن عباس ، ولم يول أحدًا ممن خرج على عثمان ، وكتب إلى قيس بن سعد ، وعثمان بن حنيف ، وأبي موسى أن يندبوا الناس في مصر والبصرة والكوفة لغزو الشام ، وندب أهل المدينة للخراج ، وأخذ في التهيؤ والتجهيز ، وهاجم أهل الفرقة في خطبته .

(تاريخ الطبرى ٤/٤٤٥)

وإذا به يفاجأ بما يقلب عليه خططه ، إذ أزعجته أنباء مكة التي سبق ذكرها .. واعتقد علىّ أن الأمر لا يتجاوز السخط على إمارته ، ووعد الناس بالإصلاح . ومن هنا لم ير قتالهم إلا إذا دعوا إلى فرقة الجماعة ، فقال عن طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة : إنهم تمالئوا على سخط إمارته ، ودعوا الناس إلى الإصلاح . وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وأكف إن كفوا ، وأقتصر على ما بلغني عنهم . . هكذا ساء ظنه فيهم ولم يفكر في أن لغضبهم أسبابًا تتعلق بثأر عثمان .

وسوف نرى أن لهؤلاء الثلاثة هدفاً آخر غير السخط على إمارته ، ومن هنا جاءت الفتنة ، واعتقد كلٌ فريق صحة ما رأى .

ثم بلغه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والإصلاح ، فتعبـأ للخروج ، ورأى في هذا خطراً على وحدة الجماعة ، وفيه انقطاع نظام المسلمين ، ودعا أهـل المدينة للخروج ، فاشتد ذلك عليهم فتثاقلوا .. وما لهم لا يتثاقلون وهم يدعون لحرب أصحـاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا لون آخر من الفتنة ! واعتـذر عبد الله بن عمر ، واستأذن في العمرة ، أما عليّ فهو واثق مما يفعل .

فقال : والله ما كَذَبت ولا كُذِبْتُ ! ودعا أهل المدينة لنصرته ، فما موقف الأطراف الأخرى ؟ (تاريخ الطبرى ٤/٤٤٥ ـ ٤٤٧)

بنـو أميـة : جاء إلى مكة عبد الله بن عامر ، وبنو أمية ، وقدم يَعْلَى بن أمية من اليمن بستمائة بعير وستمائة ألف درهم ؛ فهم مناهضون حقاً لعليّ ، مُسْتَخِفُونَ وراء دم عثمان . واستطاعوا أن يَصْرِفُوا عائشة وطلحة والزبير عن التوجه إلى المدينة ، وأقنعوهم بالتوجه إلى البصرة ، لأن لابن عامر فيها صنائع ، ولطلحة فيها هوى . أما المدينـة فإن مَن معهم لا يقتـدرون على ما بها من أعراب وغوغاء ، ودعوها أن تخفّ معهم إلى البصرة ، ومع طلحة والزبير تنهضهم للطلب بدم عثمان ، كما أنهضت مكة حتى لا يحتجوا ببيعة عليّ ، ثم تقعد .. فإن تحقق ما تريد من إصلاح ، وإلا دافعوا عنـه احتساباً لوجـه الله

فهم يستدرجون عائشة ، ويأتونها من الوجه الذى تريد ، وهو طلب دم عثمان ثم القعود ، ولم يظهروا خلع علىّ والانقضاض عليه .

واستطاعوا أن يجهزوا ستمائة رجل ، وبلغ العدد ألف رجل ، وفى رواية ثلاثة آلاف .

وردّ عبد الله بن عمر حفصةَ زوج النبىّ ﷺ ، وكانت تريد مصاحبة عائشة ، مما يصور الانفعال الحزين بمقتل عثمان .. وعادت حفصة إلى المدينة . (تاريخ الطبرى ٤/٤٥٠ ـ ٤٥٤)

عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم :

كانت عائشة مقيمة فى مكة تنتظر عمرة المحرّم وتساقط الهُرّاب ، فعلمت منهم مقتل عثمان رضى الله عنه ، وأنه لم يجبهم إلى الثأر أحد ، ورأت أن هذا نتيجة للأحداث ، وأتمت عمرتها واتجهت إلى المدينة ، فعلمت أن أهل المدينة اجتمعوا على علىّ ، وأن الطارئين غالبون على المدينة ، فرجعت إلى مكة لا تقول شيئاً ، ونزلت الحرم وتسترت به ، واجتمع إليها الناس ، فقالت :

يا أيها الناس : إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد المدينة اجتمعوا ، وقد عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الإِرْب (الحاجة) واستعمالَ من حدثت سنه ، وقد استُعْمِل الأسنّ من قبله ، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم ، وهى أمور قد سُبق

بها لا يصلح غيرها ، (فهى لا تراه مخطئًا كما سيأتى) فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحًا لهم (تنازل عنها ليصلحهم) ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرًا لجّوا وبادءوا بالعدوان ، ونبأ فعلهم على قولهم ، فسفكوا الدم الحرام . واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام ، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض من أمثالهم !

فنجاةً من اجتماعكم عليهم ، حتى ينكل بهم غيرهم (يجبن ويتأخر) ويشرد مَن بعدهم (حتى لا يتكاثروا) .

(فهى تطالب طرد هؤلاء المعتدين والتغلب عليهم) ووالله لو أنّ الذى اعتدوا به عليه كان ذنبًا ، لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من أدرانه ، إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء (يغسل بالأصابع) (أى خلصوه من ذنبه بما فعلوا به وبتوبته) .

فقال عبد الله بن عامر الحضرمى ، وكان على مكة : هأنذا أول طالب . (تاريخ الطبرى ٤/٤٤٨ ، ٤٤٩)

وعائشة هنا غاضبة لمقتل الإمام مظلومًا من قوم إصبعه خير من ملء الأرض من أمثالهم ، وأنه لم يكن مذنبًا ومع ذلك أرضاهم ، وتطالب بدمه من الأعراب والعبيد والغوغاء . وما حمّلت عليًا شيئًا من دمه ، ولا تقصيرًا فى حقه ، وما عارضت ولايته ، ولا أبدت كراهية .. وكانت جريئة جرأة عمر ، فلو كانت تريد شيئًا من ذلك لصرّحت به .. وفى غمرة ذلك الغضب العنيف ، والحزن الشديد ، استجابت لدعوة الذهاب إلى البصرة لنفس الغرض ، تدعو لنصرة عثمان

والتغلب على الغوغاء والأعراب والعبيـــد ، الذين غلبوا على مدينة الرسول ﷺ ، والخليفة الجديد ومن معه لا حول لهم بهم ولا قوة عليهم ، لكن ظروف المحيطين بعائشة ووجود بنى أمية صورت لعلىٍّ أنها هى وطلحة والزبير ساخطون لإمارته - لا غاضبين لدم عثمان - وأنهم مفرقون الجماعة ، بذهابهم إلى البصرة . . وصُورت مطاردة علىٍّ لهم (وهو يريد أن يردهم إلى الجماعة) أنه يريد حربهم وقتلهم .

ومن هنا نشأت الفتنة ، وأطلّ الشيطان بقرنه ! . وسوف توضح المواقف التالية هذه الحقائق ، وتنفى ما عـداها من روايات عن حقد عائشة على علىٍّ لموقفه منها فى حادث الإفك ، وكراهة ولايته لأنها تميل إلى طلحة وتود ولايته !..

لم يأت شىء يؤكد هذه المزاعم ، وليس ذلك من خلق عائشة ، ولا من عمل المســـلم الحق ، وقد مضى على موقف علىّ فى حادث الإفك إحدى وثلاثون سنة ، كفيلة بذهاب أثره من نفس عائشة ، وكانت سنها ما بين اثنين وأربعين وثمـانية وأربعين عاماً . فهل يقبل منها أن تريق دماء المسلمين ، وتثير الفرقة والفتنـــة ، لأنها لم تنس كلمة علىٍّ عنها للنبى ﷺ . وفى هذا ما يغنى عن رواية كل ما يناقضه .

وقد ذكر د . طه حسين أنها خطبت الناس ، فقالت : غضبنا لكم من لسان عثمان وسوطه ، وعاتبناه حتى أعتب وتاب إلى الله ، وقبل منه المسلمون (وهو المعنىُّ من إرضاء الناس وإصلاحهم ، بما

لا يعتبر ذنباً ولا معصية) ، ثم ثارت به جماعة من الغوغاء والأعراب فماصوه موص الثوب الرحيض (غسلوه بالأصابع فى رفق فلم يبق به درن) حتى قتلوه ، واستحلوا بقتله الدم الحرام ، فى الشهر الحرام ، فى البلد الحرام . (الفتنة الكبرى ٢ / ٢٨ ـ ٣٠)

ومع ذلك فقد اتهمها هو والأستاذ العقاد بالمشاركة في موقعة الجمل، انتقاما من علىّ !..

موقف طلحة والزبير :

قدم طلحة والزبير إلى مكة بعد أربعة أشهر من مقتل عثمان ، وقت قدوم بعض ولاة عثمان . فسألتهم عائشة عما وراءهم ، فقالوا : ارتحلنا كلنا من المدينة هراباً من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قومنا حيارى ، لا يعرفون حقا ، ولا ينكرون باطلا ، ولا يمنعون أنفسهم . فقالت : ائتمروا ، ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء . (تاريخ الطبرى ٤ / ٤٥٠)

فما دفع طلحة والزبير هو هذه الحال التى لا قدرة فيها للخلافة على مواجهة هؤلاء الغالبين على المدينة ، وهو الغضب لدم الإمام المهدر ، ولا أحد يقدر على الأخذ به ؛ وليس الدافع الأول هو الغضب من علىّ ، لأنه لم يعرف لهما مكانهما ، ولم يولّهما ، لهذا يلجآن إلى التأليب عليه ، والثورة به ، حقداً وحسداً !..

قد يكون لذلك موضع بين دوافع الخروج ، لكنه فى موضع أخفى ما يكون من نفسيهما ، ولا يليق بصاحبى رسول الله ﷺ ،

الذين فدى النبيّ صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم أحدهما ، وهو طلحة بأبويه ، وقال له :

« ارْمِ .. فِداكَ أَبِي وَأُمِّي » .

ووقاه طلحة بنفسه ، فشلت يده من سهم أصابها ، وبشره النبي ﷺ بالجنة . والآخر : الزبير ، سماه رسول الله ﷺ حواريّه ، لشدة نصرته ، وبشره بالجنة .. فلا يليق بهما أن يهدما الإسلام ، ويبيعا دينهما من أجل غرض دنيوى ، وبخاصة إذا علمنا أنهما فى سن الشيخوخة التى تذهب فيها عن المرء مطامح الحياة والتطلع إلى المجد ، كما ذهبت عن علىّ : رضى الله عنهم ! .. فقد كان طلحة ابن أربع وستين سنة ، والزبير ابن خمس وسبعين سنة .

وقال علىّ بن أبى طالب ، قبل أن يوزع ما فى بيت المال من الورق والعين : يا صفراء غُرِّى غيرى .. وقسمه بين الناس ولم يبق شيئاً . (مروج الذهب ١ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤)

فأىُّ سلطان وَأىّ مال يطمحان إليه ، وقد بلغا من الثراء مبلغا واسعا ، وقد بلغا من السن ما يفكر فيه المرء فى حسن الخاتمة ، لا فى سوئها بالخروج على الإمامة وتفريق الجماعة .

وهذا ما ينفى ما ذهب إليه د . طه حسين والأستاذ العقاد من أن أسباب خروجهما على علىّ لغرض دنيوى ، ولردّ الأمر شورى بعد الثأر لعثمان .

(الفتنة الكبرى ٢ / ٣١ ، ٣٢) (عبقرية الإمام ٦٢ ـ ٦٤ ، ٩١ ، ٩٢)

وقد رغّبا عائشة فى الخروج معهما إلى البصرة ، فقالت : أتأمرانى بالقتال ؟ قالا : لا ، ولكن تعظين الناس ، وتحرضينهم على الطلب بدم عثمان .. فقبلت فى غير تردد . (الفتنة الكبرى ٢ / ٣٢)

لأن هذا هو هدفها ، الطلب بدم عثمان .والتغلب على الغوغاء والعبيد والأعراب فى المدينة ، لا الثورة بالخلافة ، ولا قتال أنصار الإمام .

لكن هل سارت الأمور كما كان يريد علىّ من ردّهم إلى الجماعة بلا حرب ، وما كان الثلاثة يريدون من الثأر لعثمان بلا خروج على الإمام ولا حرب مع أنصاره ؟ سوف نرى : الأمور ستدفعهم إلى ما لا يريدون ، لتدخُّل عوامل من خارج إرادتهم ، وليست فى أيديهم .. وكان خروجهم (أى الثلاثة) سوء تقدير منهم للأمور . أما علىٌّ فقد خرج من المدينة فى سبعمائة رجل ، وهو يقدّر أنه سيلقاهم ليناظرهم ، ويبلغ منهم الرضا ، ويردهم إلى الجماعة ، ويعود آخر الأمر إلى المدينة ليقيم بها ويقيموا معه . ولكن بلغه أنهم ماضون وسيبلغون البصرة !.. ومع ذلك لم يستيئس من الصلح ، ولكنه احتاط للحرب ، فمضى فى طريقه ، وقد أرسل إلى أهل الكوفة يستنصر بهم .

(الفتنة الكبرى ٢ / ٣٥ ـ ٣٩)

وأقام « علىّ » بالرَبَذة بعد أن فاتوها ، ولما علم بخبره طارق ابن شهاب فى جماعة من الكوفة كانوا قد خرجوا معتمرين ، قال :

إنا لله وإنا إليه راجعون . . آتى ، فأقاتل معه هذين الرجلين ، وهما من المقربين ، أو أخالفه ؟ إن هذا لشديد !..

وكان ابنه الحسن يعترض على خروجه لأنه يقتل بضيعة ولا ناصر له! .

وكان حوار بينهما فى الأمر كله بيّن سعة صدر علىّ وبعد أفقه بقوة إيمانه، وأنه حريص على مواجهة الصعاب، والقيام بالواجب مهما تعرض لها! . وعرض صورة للوضع وموقفه المسالم منه، فقال فيما قال :

والله ما زلت مقهورا مُذ وليت، منقوصا، ولا أميل إلى شيء بما ينبغى . وأما قولك : اجلس فى بيتك .. فكيف لى بما يلزمنى ؟ أوتريد أن أكون مثال الضبع التى يحاط بها، ويقال لها : دباب دباب : ليست هاهنا حتى يحملها عرقوباها ثم تخرج! وإذا لم أنظر فيما لزمنى من هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر فيه ؟ فكف عنى يا بنى !..

(تاريخ الطبرى ٤/٤٥٦)

إنه الجريح الصبور على حمل عبء المسئولية! وفى رواية أنه قال له : إن أباك لا يُبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ؟

وهكذا الرجل المؤمن بواجبه لا يتهرب منه مهما كانت العاقبة .

لقد خرج ركب طلحة والزبير وعائشة من مكة، وودعتها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق، فلم ير أكثر باكيا على الإسلام من ذلك اليوم، وسمى : يوم النحيب! ثم مضى الركب إلى الربذة وفاتها .

وفى الطريق إلى البصرة مضى الركب، يدلهم العربى صاحب الجمل السريع المشترى منه لعائشة، يسألونه عن كل ما يمر بهم، حتى مروا بماء الحوأب، فنبحتهم كلابه . فقالوا : ما هذا الماء ؟ قال : ماء الحوأب .

فصرخت عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته .
ثم قالت : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقا ، ردونى (ثلاثا) .
فأناخت ، وأناخوا حولها ، وهى تأبى ، حتى كانت الساعة التى أناخوا فيها من الغد . . فجاءها عبد الله بن الزبير ، فقال : النجاء النجاء ، فقد أدرككم والله علىّ بن أبى طالب ، فارتحلوا . .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٤٥٨ ـ ٤٦١)

وهذا يردُّ الرواية التى رواها المسعودى من أن ابن الزبير قال : ما هذا ماء الحوأب .. وأقسم طلحة على ذلك ، وشهد معهما خمسون رجلا ، وكانت هذه أول شهادة زور فى الإسلام !..

(مروج الذهب ج ٢ / ٦ ، ٧ طبعة المطبعة البهية)

وقد أخذ د . طه حسين بهذه الرواية ، بعد أن ذكرت عائشة قول رسول الله ﷺ فى هذا الماء ، قائلة : لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وعنده نساؤه :

« أَيَّتُكُنَّ تَنْبَحُهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ ؟ »

وتيامن عسكرهم عن أوطاس ، فأتوا على مليح بن عفى السلمى ، وهو فى ماله ، فسلم على الزبير وسأله : يا أبا عبد الله .. ما هذا ؟
قال : عُدِىَ على أمير المؤمنين رضى الله عنه ، فقتل بلا ترة ولا عذر . قال : ومَنْ ؟ قال : الغوغاء من الأمصار ، ونُزّاع القبائل ، وظاهرهم الأعراب والعبيد .

قال : فتريد ماذا ؟ قال : نُنهِضُ الناس فَيُدْرَك بهذا الدم ، لئلا يُطَلّ ، فإن إطلاله توهين لسلطان الله بيننا أبدًا ، إذا لم يُفْطم الناس عن أمثالها ، لم يبق إمام إلا قتله هذا الضرب . قال : والله إن ترك هذا لشديد ، لا تدرون إلى أين ذلك يسير ؟ وودع كل منهما صاحبه ومضى الناس . (تاريخ الطبرى ٤ / ٤٦١ ، ٤٦٢)

هذا هو الدافع الحقيقى . . وإن كانوا لا يدرون إلى أين تسير الأمور ؟ ولكنهم يسيرون منفعلين ، حائرين .

دخول البصرة :

انتظرت عائشة خارج البصرة ، وأرسلت إلى وجوه القوم ، وجاءها رسولا عثمان بن حنيف : والى علىٍّ على البصرة ، يسألانها عن هدفها .

فقالت : والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر . إن الغوغاء من أهل الأمصار ونُزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا تِرة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام ، وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا فى دار قوم كانوا لهم كارهين لمقامهم ، ضارين مُضِرِّين ، غير نافعين ولا متقين ، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون !..

فرُحت فى المسلمين ، أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما خشية الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

ننهض فى الإصلاح من أمر الله عز وجل ، وأمر رسول الله ﷺ الصغير والكبير ، الذكر والأنثى .. فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ، ومنكر ننهاكم عنه ، ونحثكم على تغييره . (تاريخ الطبرى ٤ / ٤٦٢)

(كلام ومطلب لا عيب فيه ، إلا أنه تجاوز أمر السلطان ، دون مشورة له ، فأثار فعلهم الشبهات والشكوك) .

ولقيا طلحة ، فقالا : ما أخرجك ؟ قال : الطلب بدم عثمان . قالا : ألم تبايع عليًا ؟ قال : بلى . واللجّ على عنقى ، وما أستقيل عليًا إن حال بيننا وبين قتلة عثمان .

وكان جواب الزبير كجواب طلحة ، (وكان الرسولان غير موفقين ، حيث تركا القضية موضع النزاع ، وانصرفا إلى قضية البيعة ، ومن الطبيعى أن يجد طلحة والزبير مخرجا لهذا الاعتراض ، فلقد بايعاه أول الأمر راضيين . أما فى البيعة العامة ، فكانا مكرهين ، كما سيأتى فى قول علىّ) .

وقالت عائشة لأحد الرسولين : يا أبا الأسود ، إياك أن يقودك الهوى إلى النار بعدوان . وودعت الشانى وهو عمران ..

وقال عمران لعثمان بن حنيف : إنى قاعد فاقعد ، فقال : بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين علىّ . وطلب إليه هشام بن عامر ، أن يسامحهم حتى يأتى علىّ ، ولا يحادّهم حتى لا يفتح باب الشر . فأبى وأمرهم بالتهيؤ .. واجتمعوا فى المسجد .. فكانت الفتنة والاضطراب !..

يقول رجل : ما نحن بقتلة عثمان ، ويرد آخر : وهل زعموا ذلك ؟ لقد جاءوا طالبين النصرة .

وخرج بعض أهل البصرة إلى عائشة ، وخرج عثمان بن حنيف بمن معه إليهم (وكان هذا الخلط ، سبباً فى الفتنة ، ولو التزموا القضية ما كان هذا الشر ، واتساع الفتنة) .

وقام طلحة فيمن معه ، فبين فضل عثمان ، ومقتله ، وطلب دمه ، وقال : إن فى ذلك إعزاز دين الله وسلطانه ، وهو حد من حدود الله . فإن قمتم به عاد الأمر إليكم ، وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ولا نظام .. وتكلم الزبير بمثل ذلك . (فلم يخلعا عليًا ، ولم يطعنا فيه ، ولم يتهماه) . فقال من معهما : صدقا وبرّا . وقال من مع عثمان ابن حنيف : كذبا وفجرا ، (وهكذا الفتنة لا قيم ولا أقدار ، وخلطوا بين البيعة وبين القضية) ، وتحاصب الناس وتسابوا .

فخطبت عائشة ، وكانت جهيرة الصوت :

كان الناس يتجنون على عثمان رضى الله عنه ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة ، فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ، ويرون حسناً من كلامنا فى إصلاح ذات بينهم .

فننظر فى ذلك ، فنجده بريًّا تقيًّا وفيًّا . ونجدهم فجرة كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون ! فلما قووا على المكاثرة فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام ، بلا ترة ولا عذر !..

ألا مما ينبغى لكم نحوه : أخذ قتلة ـ عثمان رضى الله عنه ـ وإقامة كتاب الله عزّ وجلّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

(فهى تطلب إقامة حدّ الله فى قتلة عثمان ، ولا تزيد ، ولا تنال عليًّا بسوء ، ولكنها الفتنة تغيب العقل وتميت الضمير) .

لهذا قالت فئة : صدقت ، وقالت الحق ، وجاءت بالمعروف .

وقال آخرون : كذبتم ، والله ما نعرف ما تقولون .

(يقال هذا لأم المؤمنين !.. وسوف نرى أنهم من قتلة عثمان) .

وجاء حكيم بن جبلة على الخيل ـ (وقد سبق لنا التعرف على حكيم فى عثمان بن عفان) ، فأنشب القتال فى أصحاب عائشة وهم ممسكون ، فلم يقاتلوا إلا دفاعاً حتى حجز الليل بينهما ، وغدا حكيم يسب عائشة ويقتل من يرد عليه . . فاقتتل الفريقان قتالا شديدًا ، وكثر القتل فى أصحاب ابن حنيف ، وكثرت الجراحات بين الفريقين ، ونادى منادى عائشة بالكف ، فأبى رجال ابن حنيف ، حتى إذا عضتهم الشرّةُ طلبوا الصلح ، بأن يرسلوا رسولا إلى المدينة :

فإن كانا بايعا كرهاً أخلى عثمان لهما البصرة ودخلوها ، وإلا خرج طلحة والزبير .. وجاء الرسول إلى المدينة ، فاختلف الناس .

وقال عليّ في كتابه إلى عثمان ، وكان في الربذة : إنهما ما أكرها إلا كرهاً لفرقة . ولقد أكرها على جماعة وفضل . فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا .

(وهنا كان عليّ موفقا) لكن ابن حنيف احتج بكتاب عليّ وأبى الخروج إليهما . . وجمع طلحة والزبير الرجال فغلبوا عثمان ورجاله ، وأخرجوهم من القصر .

(وهكذا حوّل عثمان بن حنيف الأمر إلى صراع على الإمارة ، وما أرادوا ذلك) . وأصبح بيت المال والقصر في أيدي طلحة والزبير ، وجاء حكيم بن جبلة في خيل يسب عائشة ، وردّت عليه امرأة فقتلها ، فانصرف عنه بعض من معه ، وبقي من اشتركوا في قتل عثمان وحصاره .

وقالت عائشة : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم .. ونادَوْا من لم يكن من قتلة عثمان فليكف عنا . . وأنشب حكيم القتال ، وانتهى القتال فقتل كل من خرج لحصار عثمان بن عفان من أهل البصرة إلا حرقوص بن زهير ، وبعثوا بذلك إلى الأمصار يدعونهم إلى مثل ما نهضوا به . وقد قتل حكيم بن جبلة في هذه المعركة

(تاريخ الطبري ٤ / ٤٦٢ ـ ٤٧٠)

قدوم عليّ إلى البصرة من الربذة :

أرسل عليّ محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة ، يدعوها لنصرته ، فدعاهم أبو موسى الأشعري إلى القعود عن الفتنة كأمر رسول الله ﷺ ، فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر ، فقال الحسن : يا أبا موسى : ما أردنا إلّا الإصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يُخاف على شيء . فلم تثبط الناس ؟ . فقال : إنه مستشار مؤتمن .

ولقد حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتنة ، ونهى القرآن عن التعرض القتل وقتل المؤمنين ، وخطب عمار يردّ ، فردّ عليه آخر ، واختلف الناس .. ودعا القعقاع إلى نصرة عليّ ، وما يريد إلا الإصلاح فخرج بعضهم وقعد بعضهم .. واحتل مالك بن الحارث (الأشتر) القصر وبيت المال .

وأراد عليٌّ التحرك إلى البصرة ، فسألوه عما يريد ؟

فقال : الذى أريد وأنوى الإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه . وإن لم يجيبونا ندعهم بعذرهم ، ونعطيهم الحق ونصبر . فإن لم يرضوا ندعهم ما تركونا . فإن لم يتركونا امتنعنا منهم (دافعنا) .

وتوجه عليّ إلى البصرة ، وقد اجتمع إليه سبعة آلاف ومائتان ، بجميع عبد القيس وهى عدة آلاف ..

ونزل خارج البصرة . (تاريخ الطبرى ٤٧٨ ـ ٤٨٥)

التفاوض مع أمير المؤمنين وطلحة والزبير :

وأرسل عليّ القعقاع بن عمرو إلى عائشة ، فسلم عليها ، وقال : أمّهْ ، ما أشخصك إلى هذا البلد ؟

قالت : أريد الإصلاح بين الناس . .

وطلب حضور طلحة والزبير ، وأعاد أمامهما ما قالت أم المؤمنين .

وقال : أمتابعان أم مخالفان ؟ .

قالا : بل متابعان ، فما هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عزمنا (رضيناه) لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح . قالا : قتلة عثمان رضي الله عنه ؟ فإن تُرِكَ كان تركاً للقرآن ، وإن يُعمل به كان إحياء للقرآن .

فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة . وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلا واحداً ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم . وطلبتم ذلك الذى أفلت — يعنى حرقوص بن زهير — فمنعه ستة آلاف . فإن تركتموه كنتم تاركيه كما تقولون ، وإن قاتلتموهم ، والذين اعتزلوهم فأديلوا عليكم (غلبوكم) فالذى حَذِرتم وقويتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ! .

وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم ، نصرة لهؤلاء (المقتولين) كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير !..

قالت عائشة : فتقول أنت ماذا ؟

قال : أقول هـذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سُكِّن اختُلجوا (انتزعوا) . فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتبشير ورحمـة ، ودرك بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة .

وإن أبيتم إلا مكابرة هـذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر ، وذهاب هذا الثأر ، وبعثة الله فى هـذه الأمة هزاهزها (فتنها) . فآثروا العافية ترزقوها . وكونوا مفاتيح خير : كما كنتم تكونون ـ ولا تعرضونا للبلاء ، ولا تَعَرَّضوا له فيصرعنا وإياكم . إلخ .

فقالوا : نعم ، إذاً قد أحسنت وأصبت المقالة ، فارجع ..

فإذا قدم علىّ ، وهو على مثل رأيك يصلح هذا الأمر .

فرجع إلى علىٍّ فأعجبه ذلك ، وأشرف القـوم على الصلح (لأن القعقاع أحسن التصرف والتزم بقضية الخلاف) .

وقال علىّ للوفود التى جاءته : والله ما نريد قتالهم إلا أن يقاتلونا !.. وما خرجنا إلا لإصلاح . وسار حتى نزل البصرة .

(تاريخ الطبرى ٤/٤٨٨ — ٤٩٢)

وهـذا الموقف هو ما ذهبت إليه فى أول هـذا البحث من أنها الفتنة التى حجبت الحقائق ، وأن كلا منهم طيب النية لا يبغى الفرقة ولا الحرب .. ولكن ظروف البعد ، وعدم اللقاء ، وتدخل عناصر أخرى أحدثت هذه الأمور المحزنة !

ترى هل سينتهى إلى الصلح كما أراد هؤلاء الصلحاء ؟ .

رجع القعقاع بهذا الاتفاق ، وجمع عليّ الناس وخطب فيهم ، وذكر أمر الجاهلية والإسلام، وإنعام الله على الجماعة والأمة بالخلافة، ثم ذكر هذا الحدث الذى جرّه على الأمة أقوام طلبوا الدنيا حسدا لمن أنعم الله عليه بالفضيلة ، وقد أرادوا رد الأشياء على أدبارها ، والله بالغ أمره .. وطلب الرحيل غدا ، ولا يرحل من أعان على عثمان بشيء ، وليغن السفهاء عن أنفسهم ، وهو يعنى بهم طلاب الدنيا .

عندئذ اجتمع الذين اشتركوا فى أمر عثمان ومعهم المصريون وابن السوداء وخالد بن ملجم والأشتر ، وتشاوروا ورأوا أن الصلح يتم على دمائهم . وانتهوا بتوجيه من ابن السوداء إلى المسارعة إلى بدء القتال دون أن يفرغوهم للنظر ، وتفرقوا على هذا الرأى .

وخرج عليّ فى الغد بمن معه ، وخرج أهل الكوفة ، ونزل حيث نزل من البصرة ، وكان من مع طلحة والزبير مخندقين . .

وأشار بعض الناس على الزبير أن يُصَبِّح ألف فارس عليا بالهجوم قبل موافاة باقى أصحابه .

قال الزبير : إنا لنعرف أمور الحرب ، ولكنهم أهل دعوتنا وهذا أمر حدث فى أمتنا لم يكن قبل اليوم . هذا أمر من لم يلق الله فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة !.. وقد فارقنا وافدهم على أمر ، وأرجو أن يتم الصلح ، فأبشروا واصبروا .

ودعا رجل آخر طلحة لمثل ذلك، فقال: ياصُبَيْرَة، إنا وهم مسلمون؛ وهذا أمر لم يكن قبيل اليوم فينزل فيه قرآن أو سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. إنما هو حدث لا ينبغي أن نتركه اليوم أو نؤخره وبيّن أن الثأر لا يمكن إدراكه الآن، وأن حكم الإســلام يقضي باتباع أعم الأحكام نفعا وأحوطها.

وقالا: لكعب بن مسور: إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا، وهو أمر ملتبس. ألا والله ما أخذ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بعد بعث الله عز وجل نبيه طريقا إلا علموا أين مواقع أقدامهم.. حتى حدث هــذا، فإنهم لا يدرون: أمقبــلون هم أم مدبرون! إن الشيء يحسن عندنا اليوم، يقبح عند إخواننا! فإذا كان الغد قبح عندنا وحسن عندهم! وإنا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة، ثم يحتجون بها على أمثالها، ونحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه.

(وهـكذا أثبت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وسط هـذا البلاء المحدق أنهم تربية محمد صلى الله عليه وسلم: رجّاعون إلى الحق عن الباطل، وأنهم طلاب آخرة لا دنيـا).

وسأل قوم من الكوفة عليًا عمـا يريد، قال: الإصلاح وإطفاء الثائرة، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ويضع حربهم! وقد أجابوني: فإن لم يجيبونا تركناهم ما تركونا، وإن لم يتركونا دفعناهم عن أنفسنا، فهل لهم مثل ما عليهم من هـذا؟ قالوا: نعم.

وسئل علىّ عمن يقتل فى هذه الحرب ؟

فقال : إنى لأرجو ألا يُقتل أحد نقّى الله قلبه منا ومنهم ، إلا أدخله الله الجنة .

وقال لآخر : من أراد الله عز وجل نفعه ذلك ، وكان نجاءه .

وقال لمن شتمهم : كفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم ، فإنهم إخوانكم . واصبروا على ما يأتيكم . وإياكم أن يسبقونا ، فإن المخصوم غداً من خُصِم اليوم .

(تاريخ الطبرى ٤ /٤٩٣ — ٤٩٧)

ولما نزل القوم خرج علىّ وطلحة والزبير ، فتواقفوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه ، فلم يجدوا أمرا أمثل من الصلح ووضع الحرب ، حين رأوا الأمر قد أخذ فى الانقشاع ، فافترقوا على موقفهم ذلك إلى عسكرهم على أن يكلم كل منهم أصحابه ، وباتوا خير ليلة .. وبات الذين أثاروا على عثمان شر ليلة حتى أجمعوا على إنشاب الحرب ، فتسللوا فى الظلام ، وأنشبوا السلاح كل قوم فى قومهم بمعسكر عدوهم . واتهم كل قوم وجوههم بأنهم كذبوهم ، واتهم كل فريق الآخر بأنه لا يريد الصلح ، ونشط السبيئة فى الإثارة .

ونادى علىّ : أيها الناس ، كفوا . لا شىء .

وفى الغد خرج الجيشان ، ونادى علىّ : اخرج يا زبير .

فخرج في سلاحه فذكره ببيعته وقرابته ، وبأن رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم قال له : ستقاتله ظالما .

فقال الشيخ :

لو تذكرت هذا الحديث ما قاتلتك ! والله لا أقاتلك أبدًا !

ورجع إلى أم المؤمنين يخبرها باعتزاله ، فهو لا يدرى موضع الحق !

ومضى في طريقه إلى المدينة .. والأرجح أنه قتل بوادى السباع . قتله ابن جرموز غدرًا في الصلاة ، انتقاما لما كان له في الحرب من تحريض . . وأتى عمر بن جرموز عليًا بسيفه وخاتمه ، فبكاه وبشر قاتله بالنار ، ورفع سيفه وقال :

سيف طالما جلا الكروب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونعود إلى المواجهة ، ونادى علىٌّ طلحة فذكره ببيعته ، وذكره بعقاب الله لمن نكث العهد .

فرجع بعد أن قال : أستغفر الله .. وأصابه سهم غرب .

وقيل رماه مروان . ولما ملأ دمه خفّه طلب من غلامه أن يلجأ به إلى إحدى الدور ، فلجأ به إلى دار خربة ، فمات بعد ساعة .

ومرّ به علىٌّ بعد المعركة ، فبكاه ، ومسح التراب عن وجهه ؛ وقال : عزيز عَلَيّ أن أراك أبا محمد مجندلا تحت السماء .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٥٠٦ ـ ٥٠٨ ، الفتنة الكبرى ٢ / ٤٨ ـ ٥٠ ، مروج الذهب ٢ / ١٠ ، ١١)

وعندئذ خرج صبيان المعسكرين فتسابّوا ، ثم تراشقوا ، ثم تتابع العبيد ، ثم السفهاء ، ثم نشبت الحرب ، وفتّ قتل طلحة واعتزال الزبير فى عضد أصحابهما ، فما هى إلا ساعة من نهار حتى انهزموا . .

وأقبل كعب بن مسور إلى عائشة فقال : أدركى ، أبى القوم إلا الحرب ، لعل الله أن يصلح بك . فركبت هودجاً مسلحاً بالدروع على جملها (عسكر) . فلما سمعت الضوضاء قالت : ما هذا ؟

قالوا : ضجّة العسكر . قالت : بخير أم بشر ؟ وقالت : أى الفريقين كانت منهم الضجة مهزوم ؟ واشتدت المعركة حول الجمل ، وتساقط الناس وهم يمسكون بزمامه . وكاد الناس يهلكون . فقال علىّ : اعقروا الجمل ، فإن فى بقائه هلاك العرب ! فسقط وله عجيج منكر !

هنالك تفرق الناس . واحتمل محمد بن أبى بكر ومن معه الهودج ، وضرب عليها فسطاطاً ، ووقف علىّ عليه وقال : استفززت الناس حتى قتل بعضهم بعضاً .. وقال كلاما كثيراً . فقالت : يا ابن أبى طالب : ملكت فأسجح (كن سمحاً ليناً سهلا) . نعم ما أبليت قومك اليوم ! فرضى علىّ وقال : غفر الله لكِ ، فقالت : وغفر لك .

ثم أمر أخاها بنقلها إلى إحدى دور البصرة ، ثم زارها وجهزها بما يليق ، وسار فى وداعها ، وأمر أولاده بالمسير معها يوماً كاملا .

(تاريخ الطبرى ج ٤ : ٤٩٢ ، ٥٠٨ ، ٥١٨ ، ٥٣٢ ـ ٥٣٤ ـ الفتنة الكبرى ٢ / ٥٣ ، ٥٩)

وظلت عائشة محزونة نادمة لمشاركتها فى هذه الموقعة .

قالت للقعقاع وقد دخل عليها بعد الموقعة :

والله لوددت أنى متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة .

وظلت تبكى بعد عودتها إلى المدينة حتى يبتل خمارها ، وتقول :

والله إن قعودى عن يوم الجمل ، لأحب إلىّ ـ لو أتيح لى ـ من أن يكون لى عشرة بنين من رسول الله صلى الله عليه وسلم !..

وكان علىّ أشدّ من المغلوبين حزنا ، فقد صلى على القتلى ، وأمر بدفنهم ، وترحم عليهم وبكاهم ، وكان يقول : لو عرفت أن الأمر يبلغ ما بلغ لما دخلت فيه .. ويقول :

أشكو إليك عجرى وبجرى   شفيت نفسي وقتلت معشرى

وقال للقعقاع لما بلغه قول عائشة الذى سمع :

وددت لو أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ..

وكثرت القتلى والجرحى فى ذلك اليوم ، فمنهم من يبلغ بهم عشرين ألفا من نحو ستين ألف مقاتل ، ومنهم من يهبط بهم إلى عشرة آلاف .. والشىء المحقق أن الحزن سكن فى كل بيت ، والشكل دخل كل قلب ، وخسر المسلمون خيارهم من الفقهاء والحفاظ والشجعان .

(تاريخ الطبرى ٥٣٧ ـ الفتنة الكبرى ٢ / ٥٤ ـ ٥٩)

وكانت هذه الموقعة يوم الخميس ، لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين هجرية ..   (تاريخ الطبرى ٤ / ٥٣٤)

٢ — موقعة صفين :

هى الموقعة الثانية من مواقع الفتنة التى فتح بابها مقتل الإمام عثمان ابن عفان رضى الله عنه . مكث علىٌّ ثلاثة أيام بعد المعركة السابقة ثم دخل البصرة ، وجعل عبد الله بن عباس والياً عليها ، ثم عاد إلى الكوفة وأقام بها — وما كان ذلك فى نيته حين غادر المدينة !.. ومنها أرسل جرير بن عبد الله البجلى إلى معاوية ، يدعوه إلى بيعة أخرى لعله يستجيب ويجمع شمل المسلمين ، فماطله . . واستشار عَمْراً ، فأشار بأن يرسل إلى وجوه الشام ، ويلزم عليا بدم عثمان ويقاتله بهم !. وكان معاوية قد نصب قميص عثمان على منبر دمشق ، وطلب إلى الناس الأخذ بدم عثمان ، وطلب إلى الجند أن يعتزلوا النساء ، والنوم على الفراش ، وأن لا يغتسلوا إلا من الاحتلام ، حتى يأخذوا بدم عثمان ، (وهو أول من يعلم استحالة أخذه ، وإنما هى التَّعِلَّة للخروج على الإمام الجديد ، وبلوغ مطامع الدنيا فى السلطان !.. وقد وافقه عمرو بن العاص على ذلك وأيده ، وهو يعلم أنه باع دينه بدنياه ، ووعده معاوية بمصر) .

ورجع ابن عبد الله البجلى إلى علىّ ، فأخبره باجتماع أهل الشام مع معاوية على حربه ، وأنهم يبكون على عثمان ، ويتهمون عليا بقتله وإيواء قتلته ، وأنهم لا ينتهون إلا بقتل علىّ أو بقتلهم !

وحرض الأشتر عليا على جرير ، وأشار بحبسه ، ففر إلى معاوية ؛ وخرج علىّ بمن نهض معه ، ومن نهض من أهل الكوفة ، وعسكر

بالنخيلة .. وقدم عبد الله بن عباس بمن نهض معه من أهل البصرة ، وتوجه بجنده إلى صفين .

أما معاوية فقد نزل بجند الشام فى « صفين » ، ومنع المـــاء عن جند علىّ . وقيل : إن جند علىّ بلغوا مائة ألف . . وجند معاوية سبعين ألفا ، ولا يمـكن القطع بعدد الجيشين .

وأذن علىٌّ لجنده بالقتال على المـاء ، فغلبوا عليه وقالوا : والله لا نسقيهم . فقال علىّ : خذوا من المـاء حاجتـكم ، وخلوا عنهم ، فإن الله نصركم بظلمهم .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٥٦٢ ـ ٥٧٢ ، الفتنة الـكبرى ٢ / ٧٩ ، ٨٣)

السفراء بين الفريقين :

أرسل علىٌّ ثلاثة إلى معاوية ، يدعونه إلى الطاعة والجماعة ، فدعاه بشير بن عمرو إلى الله عز وجل ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، ودعاه إلى الجماعة .. فقال معاوية : هلا أوصيت أصحابك بذلك ؟ . فقال بشير : إن صاحبى أحق بهذا الأمر فى الفضل والصدق ، والسابقة فى الإسلام ، والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورد معاوية : انصرفوا ، فليس بينى وبينـكم إلا السيف . فعادوا إلى علىّ .

لقد كان أهل الشام يرون ألا طاعة عليهم لعلىّ ، لأنهم لم يبايعوه . ولم يرض الناس جميعا ببيعته ، ولأنه عطل حـدّ القصاص كما أقنعهم معاوية !..

وكان أهل العراق وأهـــل المدينة والمصريون يرون أن كثرة المسلمين بايعت ، فأصبحت طاعة أهل الشام واجبة . وإذا رفضوا فإنهم باغون يجب قتالهم حتى يفيئوا لأمر الله .. وكان هذا اللقاء بعد أربعة أشهر من موقعة الجمل فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين من الهجرة .

(تاريخ الطبرى ٤ / ٥٧٣ ، ٥٧٤ ـ الفتنة الـكبرى ٢ / ٧٩) .

بدء القتال المتقطع :

لما استيأس علىّ أخذ يُخرج البطلَ من أصحابه فتخرج معه جماعة ، ويفعل معاوية مثل ذلك ، فيقتتلان ثم ينصرفان .. وظلوا كذلك حتى حَلّ شهر المحرم سنة ٣٧ هـ فامتنعت الحرب وسعى بينهم السفراء ..

ورفض معاوية الطاعة ، واتهم عليًا بقتل عثمان ، وتوهين الجماعة ، وإيواء القتلة ، وطلب دفع القتلة ليقتلوا .

وأرسل وفدًا إلى علىّ يطلب تقديم قتلة عثمان إن لم يكن علىّ هو القاتل ، وأن يعتزل الأمر ليكون الأمر شورى بين الناس .. ولم يصلوا إلى اتفاق .. ووضح إصرار معاوية على الخلاف ، فقال علىّ لأصحابه :

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ .

وطلب إليهم التمسك بحقهم وطاعة ربهم ، أقوى من تمسك هؤلاء بباطلهم وضلالهم .

(الفتنة الـكبرى ٢ / ٧٩ ، تاريخ الطبرى ٥ / ٥ ـ ١١)

بعد المحرم سنة ٥٣٧ هـ :

أرسل علىٌّ مرة رابعة إلى أهل الشام يدعوهم إلى الطاعة والجماعة ، فأبوا ، فأمر علىٌّ جنوده كعادته : ألا يقاتلوا حتى يبدءوهم ، فهم على حجة عند الله ، وتركهم إياهم حتى يبدءوا حجة أخرى . فإذا قاتلوهم وهزموهم فلا يقتلوا جريحاً ولا مدبراً ، ولا يكشفوا عورة ولا يمثلوا بقتيل ، ولا يأخذوا من مال وسلاح العدو إلا ما كان فى المعسكر .. وإذا دخلوا رحالهم لم يهتكوا ستراً ولا يدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا ينهبوا مالا ، ولا يهيجوا امرأة بأذى ، وإن شتمْنَ وسببْنَ الأمراء والحلماء ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس .

وعبأ علىٌّ جنده فجعل على خيل الكوفة الأشتر (مالك بن الحارث) وعلى خيل البصرة سهل بن حنيف ، وعلى رجّالة الكوفة عمار ابن ياسر ، وعلى رجّالة البصرة قيس بن سعد وهاشم بن عتبة ، وعلى قراء البصرة مسعود بن فدكى .

وجعل على الميمنة عبد الله بن بديل ، وعلى الميسرة عبد الله ابن عباس ، وعلىٌّ فى القلب بين أهل المدينة وقراء أهل العراق ، وهم بين أهل الكوفة والبصرة .

وجعل معاوية على ميمنته ابن ذى الكلاع الحميرى ، وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة ، وعلى مقدمته أبا الأعور السلمى .. وكان على خيل

دمشق وعلى خيول الشام كلها : عمرو بن العاص ، وعلى رجّالة دمشق مسلم بن عقبة ، وعلى رجالة الشام كلها الضحاك بن قيس .

وقد بايع رجال منهم على الموت ، فكانوا خمسة صفوف عقلوا أنفسهم بالعمائم ، وكانوا يخرجون ويصفون عشرة صفوف ، وأهل العراق أحد عشر صفاً . (تاريخ الطبري ٥ / ١١ ، ١٢)

القتـــال :

كان القتال يوم الأربعاء ، وكان الرجل يبارز الرجل ، والجماعة تقاتل الجماعة حتى اليوم السابع ، وفى عصر يوم الثلاثاء خطب عليٌّ داعياً إلى المناجزة مع الصدق والجد والحزم ، وقضى الليلة يعبئ الناس ، وفى الصباح زحف بجنده ، وكذلك زحف معاوية بجند الشام ، وجعل عليّ لكل قبيلة بالشام أختها بالعراق ، إلا من لا أخت لها فيصرفها إلى قبيلة لا أخت لها ، واشتدّ القتال بينهم حتى حلّ المساء ولا غالب .
وصلى عليٌّ الصبح بغلس يوم الخميس ، ثم خرج بالناس ، واستطاع عبد الله بن بديل (على الميمنة) أن يزيل جند حبيب بن مسلمة (على الميسرة) حتى بلغوا قبة معاوية .. فبعث معاوية إلى من بايعوا على الموت أن يصبروا ، وبعث إلى حبيب فحمل مرة أخرى على الميمنة فانكشفت ، ولم يبق إلا ابن بديل فى مائتين أو ثلثمائة من القراء قد أسند بعضهم ظهره إلى بعض ، وأزال أهل الشام سهل ابن حنيف (على خيل البصرة) مع من تعرض لهم من أهل المدينة ..

وانصرف عليّ إلى الميسرة في قبيلة ربيعة التي تحالفت على الموت واستقلت ، ونادى الأشتر بأمر عليّ : أين فراركم من الموت ؟

فثابت الميمنة ورجع كثير من أهل البصرة ، وصمد الأشتر ومن ثاب .. وكلما صمدوا لكتيبة انكشفت ، وقتل زياد بن النضر ، ويزيد بن قيس من جند معاوية ، فقال : هذا هو الصبر الجميل والفضل الكريم .. وقاتل الأشتر قتالا شهد له الأبطال ، ومضى القتال حتى المساء ، فبلغوا الصف الأول المحيط بمعاوية ... وركب معاوية فرساً متهيئاً للفرار ، لولا أن ذكر قول الشاعر القديم :

أبت لي عفتي وأبى حيائي وإقدامي على البطل المشيح

(الأبيات)

فأبى الفـــرار ، وعاد عليّ إلى الميمنة يشجعها ، وكشفت من بإزائها ، وكانت معركة مفزعة تثير الحزن والأسى على الجميع ومن هلك منهم .

وكان عليّ كما قال عبد الرحمن السلمي يأخذ بفرسه رجلان ، حتى لا يندفع ويحمل على الناس ، فإذا غفلا حمل فلا يرجع حتى يخضب سيفه أو ينثني السيف !..

ولما انتقضت صفوف أهل الشام ، نادى عليّ معاوية : علام يقتل الناس بيننا ؟ هلم أحاكمك إلى الله : فأينا قتل صاحبه كان الأمر له .

وقال عمرو بن العاص : أنصفك الرجل .

قال معاوية : ما أنصف ! وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا غلبه ؛ وطلب عمرو منه أن يبارزه ، فقال معاوية : طمحتَ فيها بعدى !

ومضى القتال طوال الليل حتى صباح اليوم الثالث (الجمعة) ، وكانت الليلة تسمى (ليلة الهرير) تضعضعت فيها الرماح ، ونفد النبل ، ولجأ الناس إلى السيوف ، وعلىّ يسير بين الميمنة والميسرة ، ويحث كتائب القراء حتى أصبح والمعركة خلف ظهره ، والأشتر على الميمنة ، وعبد الله ابن عباس على الميسرة ، وعلىٌّ فى القلب ، وارتفع الضحى .

وخاف عمرو بن العاص هلاك أهل الشام ، فعرض على معاوية رفع المصاحف ، ففيها تفريق القوم !..

(تاريخ الطبرى ٥ / ١٣ ــ ٤٨)

وقد كانت الخسائر مروعة ، فزعم بعضهم أنها كانت فى الشام خمسة وأربعين ألف قتيل ، وفى العراق خمسة عشر ألفا ، والذى لا شك فيه كثرة القتلى ، وقَتْل الكثير من خيار المسلمين يروع من شهده ومن قرأ عنه .

قتل من أصحاب معاوية ، عبيد الله بن عمرو وجماعة من خيار الصحابة ، ومن أصحاب علىّ : عمار بن ياسر .. وقد روع أصحاب معاوية لقتله ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم له :

« تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ » .

وحاول معاوية إذهاب هذا الروع ، فاحتال وقال :

نحن لم نقتله ، بل قتله من أحضره .

(وهكذا تكون رقة الدين ، تطوع الدين للدنيا) .

وكان عمار شيخاً واهناً ، لكنه كان قوى الإيمان ، فكان يقول عند انكشاف الميمنة : والله لو ضربونا حتى بلغوا شعفات هَجَر ، لعلمنا : أنا على الحق ، وأنهم على الباطل !..

وقتل عمار ، وكان حامل راية كتيبته ، وهاشم بن عتبة بن أبى وقاص قائدها ، وقتل كثير من القراء والصلحاء من أصحاب علىّ ، وكانوا يقاتلون عن بصيرة ، ويرون القتال دينا يتقربون به إلى الله ، وأنهم يقاتلون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله ، وقهر الفئة الباغية ، كما أمر الله .

وكان أهل الشام يرون بيعة عثمان فى أعناقهم ، وأن قتلته استحلوا الدم الحرام ، وانتهكوا حرمة الإمامة والإمام .

وكان معاوية قد ألقى فى روع أصحابه أن عليًا وراء ذلك ، وأنه يعطل القصاص من القتلة !.. لهذا قاتلوا غضباً لدين الله ، وغضباً للإمام الشهيد ، وإصلاحاً لما فسد من أمور الناس !.

وكان إلى جوارهم من عاد إلى العصبية الجاهلية ، والتفاخر والتكاثر ، وطلب الدنيا ، والحرص عليها ، (وهكذا كانت الفتنة) .

(الفتنة الكبرى ٢ / ٨٣ ـ ٨٧)

الإخفاق بعد النصر :

تركنا جيش معاوية منهزماً ، وقد رفع المصاحف فراراً من الهلاك ؛ فقال المتعصبون من القراء ، وعلى رأسهم مسعود بن فدكى ، والحاقدون الحاسدون لما أحرزه الأشتر فى ذلك اليوم من شجاعة وبراعة ، أو المتآمرون مع معاوية خلال الشهر الحرام ، وكان يستحل الكيد والتآمر ، أو من سئموا الحرب وحرصوا على الحياة ـ قال هؤلاء : نجيب إلى كتاب الله عز وجل ، بعد أن أوقفوا القتال .

فقال علىّ : يا عباد الله ، امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معاوية ، وعمرو بن العاص ، وابن أبى معيط ، وحبيب ابن مسلمة ، وابن أبى سرح ، والضحاك بن قيس : ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن !.. أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالا ، وصحبتهم رجالا ؛ فكانوا شر أطفال وشر رجال !..

ويحكم : إنهم ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها ، وما رفعوها إلا خديعة ووهناً ومكيدة !..

فقالوا : ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل ، فنأبى أن نقبله . فقال لهم : فإنما قاتلتهم ، ليدينوا بحكم هذا الكتاب :

﴿ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ﴾ .

فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ، ونسوا عهده ، ونبذوا كتابه !..

(كان من واجب هؤلاء أن يستمعوا إلى إمامهم بعد هذه الحجة ويطيعوه ، كما أمر الله ورسوله ، أو يراجعوه فيما قال .

لكن بعضهم ممن عنده بعض العلم والحفظ وهو جاهل بحقائق دينه أصرّ على تعصبه الأعمى وحمقه) . فقال زعيمهم مسعود بن فدكى التميمى وزيد بن حصين الطائى فى عصابة من القراء : يا علىّ . أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دُعيت ، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم ، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان . إن علينا أن نعمل بكتاب الله عز وجل .. تقبلناه .. والله لتفعلنها ، أو لنفعلنها بك !..

(وهذا الموقف مناقض لكتاب الله ، وتربية النبي صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، فهم جاهلون بأمر الله فى كتابه !.. وهم ليسوا بأعلم به من علىّ ! ولكنه حمق التعصب المؤسس على جهل ، وهو أخطر من الخيانة والتآمر مع العدو) .

ويئس علىّ ، وقال : فاحفظوا نهيي إياكم ، واحفظوا مقالكم لى . إما أن تطيعونى فتقاتلوا ، وإما أن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم .

فقالوا : لا . . ولم يقف حمقهم ، إن لم تكن خيانتهم عند هذا الحد ، بل طلبوا إليه أن يكف الأشتر عن القتال . . وكان قد مضى فيه آملا أن يفتح الله على يديه .. فأمهل الأشتر رسول علىّ ، ومضى فى قتاله ، واشتد ، وعلت الأصوات ، فاتهموا عليًا بأنه أمره بقتالهم ، وهددوا بقتله واعتزاله ، إن لم يعد ..

وعاد الأشتر يصرهم بالمكيدة - كما رآها على - ويطلب إمهاله ساعة ، حتى يتم له النصر .

قالوا : إذن ندخل معك فى خطيئتك .

قال الأشتر : حدثونى عنكم ، وقد قتل أماثلكم وبقى أراذلكم : متى كنتم محقين ؟ حين كنتم تقاتلون ، وخياركم يقتلون ؟ فأنتم الآن إذ أمسكتم عن القتال مبطلون ، أم الآن أنتم محقون ؟ . فقتلاكم الذين تختارون فضلهم ، فكانوا خيرا منكم فى النار إذًا . قالوا : دعنا منك يا أشتر ، قاتلناهم فى الله عز وجل ، وندع قتالهم لله سبحانه . إنا لسنا مطيعين لك ولأصحابك ، فاجتنبنا . فقال : خُدِعتم والله فانخدعتم ، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ، يا أصحاب الجباه السود . كنا نظن صلاتكم زهادة فى الدنيا ، وشوقا إلى لقاء الله عز وجل ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت . ألا قبحا يا أشباه النيب الجلالة ، وما أنتم برائين بعدها عزا أبدا ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون .. فسبوه ؛ فسبهم ؛ فضربوا وجه دابته بسياطهم ، وأقبل يضرب وجوه دوابهم .

فصاح بهم على ، فكفوا ، وقال :

أيها الناس .. قد قبلنا أن نجعل القرآن حكما بيننا وبينهم .

(هكذا كان الجهل بالدين والغرور ببعض العلم ، والخوف من الموت ، وحب الدنيا فى قلوب تمسكت بظاهر الدين ، سببا فى الفرقة وضياع النصر !) .

وظهر العامل الثالث : الحقد والحسد ، فقال الأشعث بن قيس : إن الناس رضوا .. وذهب إلى معاوية يستطلع رأيه ، فقال : يختار كلٌّ منهما رجلا ، فيحتكمان إلى كتاب الله . فقال الأشعث : هـذا هو الحق .. وقال الناس : رضينا .. واختار أهل الشام عمرو بن العاص .

وقال الأشعث والقراء : نختار أبا موسى الأشعرى .

قال علىّ : قد عصيتمونى فى الأولى ، فلا تعصونى الآن .

إنى أرى ألا أرسل أبا موسى .

قال الأشعث وزيد بن حصن : لا نرضى إلا به .

(كأنما هو التآمر على علىّ) .

قال علىّ : هو ليس لى بثقة . وقد خذّل الناس عنى ، فاختاروا ابن عباس . قالوا : ما نبالى أنت أم ابن عباس ، نريد رجلا منك ومن معاوية سواء (هذا إذا كان الحكم واحدا . أما المحال فكل يختار من يمثله . لكنه العناد أو الخيانة والمروق من الدين) .

قال علىّ : نجعل الأشتر . قال الأشعث : وهل سعّر الأرض غير الأشتر ؟! وقال : وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ؟!

(هكذا كشف عن حسده وغيرته) إنه يريد أن يضرب بعضنا بعضا بالسيوف ، حتى يكون ما أردت أو ما أراد !

قال علىّ : أما إذ أبيتم إلا أبا موسى ، فاصنعوا ما بدا لكم (قول اليائس من قوم عصاة معاندين) . وطلب الأحنفُ بن قيس أن يكون مع أبي موسى ، فأبوا إلا أبا موسى وحده .

وكان مما قاله الأشتر للأشعث : والله لرغبة بي عنك فى الدنيا للدنيا والآخرة ، ولقد سفك الله عز وجل بسيفى هـذا دماء رجال ما أنت عندى خير منهم ، ولا أحرم دما . وكانت أنف الأشعث تنفث الحسم . (وهذا كله يصور حرص الأشعث على الخذلان) .

وكان الاتفاق يوم الأربعاء لثلاث عشرة من صفر سنة سبع وثلاثين على أن يلتقى الحكمان فى شهر رمضان مع كل واحد خمسمائة من أنصاره . (تاريخ الطبرى ٥ / ٤٨ ـ ٥٧)

الحكمان :

دفن الناس قتلاهم وأمر علىّ بالرحيل .. وقد سرّ بذلك الفاسقون ، وحزن وبكى المخلصون !.. وقال علىّ فى أثناء العودة إلى الكوفة لمن بكى القتلى : أما إنى أشهد لمن قتل صابراً محتسبا بالشهادة .

وعادوا يتشاتمون .. يقول من أصبحوا خوارج : يا أعداء الله ! أدهنتم فى أمر الله عز وجل وحكمتم (وهم الذين أرغموا عليًا على التحكيم وهددوه بتسليمه للعدو أو بقتله ، وهم الذين أبوا القتال وفرطوا فى حق الله ! . وهكذا التقلب فى الرأى دليل سطحية الفكر المغرور ، وخير منه الجهل . أو هى الخيانة والعمل للعدو) .

ويقول الآخرون : فارقتم إمامنا وفرّقتم جماعتنا ، (وكأنهم لم يقعدوا ويرغموا الإمام على القعود عن الحرب وقبول الحكم !) .
(تاريخ الطبرى ٥ / ٦٠ ـ ٦٣)

واجتمع الحكمان في دومة الجندل : أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص .. وبعد المداولات بحضور خمسمائة من أنصار كل طرف ، قدّم أبو موسى .. فأعلن أنهما اتفقا على خلع كل من علىّ ومعاوية .

وقال عمرو : إنه خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه ، وأثبت صاحبي معاوية . فقال أبو موسى : مالك ؟ لا وفقك الله ! غدرت وفجرت ! وإنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث !

فقال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا !..

وتضارب شريح وعمرو بن العاص بالسياط ، وحجز الناس بينهما ، وعاد عمرو إلى معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، وعاد عبد الله بن عباس وشريح إلى علىّ محزونين . (تاريخ الطبرى ٥ / ٦٧ - ٧١)

(فقد صدّق ما كان علىّ يخشاه من سوء اختيار ممثليه فى محادثات السلم ، وقد ضيّع أنصارُه دماء الشهداء ، وضيعوا رأى الإمام بعنادهم ، وضيعوا جهوده فى السلام بسفههم أو بخيانة بعضهم) .

وخطب علىّ محزونا من هؤلاء الأتباع المشاقين المخالفين ، يصوّر سوء الحال :

الحمد لله ، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدثان الجليل ! وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

أما بعد ، فإن المعصية تورث الحسرة ، وتعقب الندم ..

وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين، وفى هذه الحكومة أمرى، ونخلت لكم مخزون رأيى، لو كان يطاع لقصير أمر!

ولكن أبيتم إلا ما أردتم، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتهمو أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضُحَى الغد

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحييا ما أمات القرآن، واتبع كل منهما هواه بغير هدًى من الله، فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية، واختلفا فى حكمهما!.. وكلاهما لم يرشد.. فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين. استعدوا للسير إلى حرب الشام، وأصبحوا فى معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين. (تاريخ الطبرى ٥/٧٧، ٧٨)

وكتب إلى الخوارج يطلب إليهم العودة للسير إلى العدو، فكتبوا إليه: إنك لم تغضب لربك، وإنما غضبت لنفسك.. فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ﴾.

فيئس منهم (وأى خيانة أكثر مما صنعوا: أرغموه على قبول التحكيم.. ثم عادوا يسبون الآخرين، متهمين إياهم بخذلان إمامهم، وإرغامه على قبول التحكيم، وفرطوا بذلك فى حق الله..

ثم هم اليوم حينما عاد إمامهم يدعو إلى الجهاد ، يزعمون أنه غضب لنفسه لا لله ، وكفر بقبول التحكيم !..

وهم يطلبون إليه أن يشهد بذلك ويتوب ، ثم ينظرون !..

(تاريخ الطبرى ٥ / ٧٨)

(هذا إن لم يكن الحرص على الخيانة ، فهو الهوس والعناد الحريص على الخلاف مع الإمام .. وهذا كله ليس من الدين فى شيء وسنرى أن هؤلاء الخوارج قد استنفدوا جهده ، ومن استجاب لندائه فقعدوا هم الآخرون بعدئذ وخذلوا الإمام) .

٣ — الخوارج .

هذا هو الموطن الثالث من مواطن الفتنة التى أذهبت مبادئ الإسلام ، وقضت على الخلافة .

وقد رأينا جماعة القراء والفقهاء بزعامة مسعود بن فدكى ، وزيد ابن حصين يقولون : يا علىّ . أجب إلى كتاب الله إذا دُعيتَ وإلا رميناك برمتك إلى العدو .

ولما أجاب ونزل على طلبهم اختيار أبى موسى مكرها ، وأراد إرسال أبى موسى ، أتوه وقالوا : لا حكم إلا لله (أى يرفضون التحكيم) ، وقال حرقوص : تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم .

قال عليّ : لقد أمرتكم بذلك فعصيتمونى ، وبيننا وبين القوم عهد لا نخلفه .. قال حرقوص : ذنب يجب أن تتوب منه .

قال عليّ : ما هو بذنب ، لكنه عجز عن الرأى ، وضعف عن العقل ، وقد نهيتكم فيه . قال زرعة : يا عليّ . إن لم تدع إلى تحكيم الرجال فى كتاب الله عزّ وجلّ ، قاتلناك فى طلب وجه الله ورضوانه .

قال عليّ : بؤساً لك ! ما أشقاك ! كأنى بك قتيلا تسفى عليك الريح ! إن الشيطان قد استعداكم (وأى استعداء أكثر من هذا الغرور والتعالى على إمامهم ، ومن هو أعرف بالدين منهم ، وهذا التقلب فى الرأى ؟) فاتقوا الله عز وجل ..

ولما ذهب أبو موسى للتحكيم ، جعلوا يتنادون فى المسجد ، وهو يخطب : لا حكم إلا لله ..

فيرد عليّ : كلمة حق أريد بها باطل ، وقال لهم :

إنا لا نمنعكم من المساجد ، ولكم حقوقكم وفيئكم ، ولا نقاتلكم ما لم تبدءونا .

(تاريخ الطبرى ٥ / ٤٩ ، ٧٢ ، ٧٣)

وقد رأيناهم ـ بعد إخفاق التحكيم ـ يدعوهم عليّ للجهاد ورفض التحكيم ، فيصرون على كفره بقبول التحكيم ، ويرفضون الخروج معه ، ويطلبون منه الشهادة على نفسه بالكفر ، ثم ينظرون !..

فيأبى هوسهم وضلالهم واستجابتهم للشيطان .

لقد أبوا دخول الكوفة بعد عودة المحاربين من صفين ، ونزلوا فى حروراء ، وكانوا اثنى عشر ألفا ، وجعلوا أمير القتال : شبث بن ربعى التميمى ، وإمام الصلاة : عبد الله بن الكواء . وحاورهم عبد الله بن عباس فلم يقنعهم . فأتاهم علىّ ، فقالوا : إنا كفرنا بقبول التحكيم ، ثم تبنا ، فتب كما تبنا نبايعك ، وإلا فنحن مخالفون .. فرفض علىّ أن يحكم على نفسه بالكفر . (تاريخ الطبرى ٥ / ٦٥ ، ٦٦)

وأصروا على عنادهم ، ولم يقفوا عند حد المعارضة والاعتزال ، حتى رفض علىّ حكم الحكمين .. ودعاهم إلى الجهاد ، فأبوا حتى يحكم على نفسه بالكفر . وتركهم ونزل بمن استجاب له من غيرهم بالنخيلة ، ومن أرسلهم من البصرة عبد الله بن عباس ، وبلغ من معه ثمانية وستين ألفا .

أما الخوارج فقد بدءوا الإفساد والعدوان على الناس ، سألوا عبد الله بن خباب بن الأرت عن حديث الفتنة . فذكره لهم ، فضربوا عنقه على ضفة نهر الفرات ، وبقروا بطن أم ولده عما فى بطنها ، ذلك لأنه أثنى على علىّ وصدّقه .

وقد بلغ بهم التنطع فى الدين أن أحدهم وضع بلحة فى فمه سقطت من نخلة ، فقال له أحدهم : تأخذها بغير حلها ؟ وبغير ثمن ؟ فلفظها ! . ثم قتلوا ثلاث نسوة مررن بهم .. وبلغ ذلك عليًّا ! .

فقال الناس : لا ندع هؤلاء وراء ظهورنا ، يهددون أهلنا .

وخرج إليهم عليٌّ فقال :

أيهـا العصابة التى أخرجتها عبادة المراء واللجاجة ، وصدّها عن الحق الهوى ، وطمح بها النزق ، وأصبحت فى اللبس والخطب العظيم . إنى نذير لـكم أن تصبحوا تلفيـكم (تجدكم) الأمة غداً صرعى .. بأثناء هذا النهر !..

ثم ذكر موقفـــه وموقفهم من التحكيم وعودته إلى أول الأمر ، ثم قال : فما الذى بكم ؟ ومن أين أتيتم ؟

فذكروا كفرهم وتوبتهم ، وطلبوا منه ذلك .

فقال عليّ : أبعد إيمانى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجرتى معه ، وجهادى فى سبيل الله ، أشهد عَلَى نفسى بالـكفر ؟ !

لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين !

وذكر لهم تعرضهم للناس بالقتل والعدوان ..

فتنادوا : لا تخاطبوهم ولا تكلموهم ، وتهيئوا للحرب وقالوا : الرواحَ الرواحَ إلى الجنة .

فرفع عليّ راية أمان مع أبى أيوب ونادى : من انصرف إلى هذه الراية فهو آمن . ومن انصرف إلى الـكوفة أو المدائن فهو آمن . فانصرف كثيرون ، وبقى عبد الله بن وهب الراسبى فى ألفين وثمانمائة ..

وزحف عليٌّ عليهم بعد أن هاجموه ، فقضى عليهم رجاله فى ساعة ، بعد أن فرقوا خيل عليّ فرقتين فأطبقوا عليهم .

(تاريخ الطبرى ٥ / ٧٣ — ٨٦)

وحدّد عليٌّ سبب عنادهم فيما سبق وحين مر بهم ، بأنه سيطرة الجدال بالباطل ، لا طلب الحق عليهم ، وخضوعهم لهواهم وحمقهم وسيطرة الشيطان عليهم ، فخيل إليهم النصر وفرْضَ سلطانهم . .

وبعد الموقعة كان التخاذل بزعامة الحاقد أو السفيه الآخر الأشعث بن قيس ، إذ طلب منهم عليّ التوجه إلى العدو ، فإذا بالأشعث يطلب عودة الناس إلى المصر ليصلحوا عدتهم ، وليمدهم أمير المؤمنين بما يعوضهم عما هلك منهم !..

فأمر عليّ الناس أن يلزموا معسكرهم ويوطنوا أنفسهم على الجهاد . وأن يقللوا من زيارة النساء والأولاد حتى يسيروا إلى عدوهم ...

فأقاموا أياما ثم تسللوا من معسكرهم ، إلا قليلا من وجوه الناس ؛ وترك المعسكر خالياً . .

فلما رأى عليّ ذلك ، انكسر رأيه عن المسير ، ودخل الكوفة .

(وهنا كان الحقد لدى البعض ، وحب الدنيا واتباع الهوى ومخالفة أولى الأمر لدى الآخرين ، سبباً فى ضياع فرصة الجهاد ، ومبدأً لوحدة المسلمين تحت راية الخلافة) .

وخطبهم عليٌّ مراراً ، فلم يستجيبوا لداعى الجهاد ، إلا استحياء ، قبل أن يقضى الله فيه قضاءه بالاستشهاد .

وكانت وقعة الخوارج وتسمى موقعة النهروان سنة ثمان وثلاثين :

(تاريخ الطبرى ٥ / ٨٧ ـ ٩١)

وظل الخوارج الذين تفرقوا يتجمعون تحت قائد منهم ، ويتصدون للناس ، فيبعث علىّ من يقاتلهم حتى يقتل من خرج منهم ، أو يزرقهم ، ثم لا يلبثون أن يتجمعوا مرة أخرى ، ومضوا حتى عهد معاوية .

(الفتنة الكبرى ٢ / ١٥٥)

وكما هزمهم علىّ فى ميدان الحرب ، فقضى عليهم ، وأذهبوا قوته – وكان هلاكهم سبباً فى تخاذل الناس عن نصرته حزناً على أقاربهم – فقد هزمهم فى ميدان الجدل والحوار !. طلب إليهم بعد خروجهم إلى النهروان أن يُخرجوا إمامهم للحوار ، فأخرجوا ابن الكواء .

قال علىّ : ما الذى نقمتم علىّ ، بعد رضاكم ولايتى ، وجهادكم معى وطاعتكم لى ، فهلا برئتم منى يوم الجمل ؟

قال ابن الكواء : لم يكن هناك تحكيم .

قال علىّ : يا ابن الكواء .. ويحك ! أنا أهدى أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : بل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال علىّ : فما سمعت قول الله عزّ وجلّ .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ .

أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون ؟ .

قال : إن ذلك احتجاج عليهم . . وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أحرى أن نشك فيك .

قال عليّ : وإن الله تعالى يقول :

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾

قال ابن الكواء : ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم ..

وبعد كلام طويل قال : إنك صادق فى جميع قولك ، غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين .

قال عليّ : ويحك يا ابن الكواء .

إنى إنما حكمت أبا موسى ، وحكم معاوية عمرًا .

قال : فإن أبا موسى كان كافرًا . قال عليّ : متى كفر ؟ أحين بعثته ، أم حين حكم ؟ قال : حين حكم .

قال عليّ : أفلا ترى أنى إنما بعثته مسلماً ، فكفر - فى قولك - بعد أن بعثته .. أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله فدعاهم إلى غيره ! هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شىء ! قال : لا .

قال عليّ : ويحك . فما كان عَلَيّ أن ضلّ أبو موسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبى موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس ؟ !

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بِنِدٍّ لعليّ فى مجال نقاش ، فكفّروه ، كأنهم آمنوا بصدق عليّ فى حجته .

لكن قهرتهم لجاجة العناد ، ككل المتهوسين الذين يجدون لذة في العناد لا يجدونها في الحق والمعرفة ، وأصروا على تكفير علىّ وأصحابه ، وألا يعاملوهم إلا بالحرب ، وانتهوا إلى مصيرهم الذى تقدم .

(عبقرية الإمام ٧٧ ـ ٨٠)

بهذه العوامل كلها فى أتباع علىّ التى لا قبل له بها ، ولا يد له فيها ، ضاع النصر من علىّ بعد إقبال عليه ، وتبددت قوته ، وذهبت ريح أعوانه بعد تجمع وقوة ..

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ﴾ !.

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب المنافع عامدين ، والخوارج غير عامدين ، (إن لم يكن من بينهم أعوان لمعاوية) ، فحاربوا عليًا وتركوا معاوية ، وطلبوا التوبة من علىّ ولم يطلبوها منه !..

واستمر معاوية فى إنفاذ البعوث والسرايا إلى كل موطن آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سأما .. ويبعث علىّ من يردهم ..

فلم تنقض سنتان حتى كانت مع معاوية : مصر والمدينة ومكة ، وبقى علىّ فى أرباض الكوفة يائساً منعزلا عن الناس ، يتمنى الموت كما قال فى بعض خطبه ، ويوجس شرًا من أقرب الناس إليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية ، على أن تكون له العراقُ ، ولمعاوية الشام ، إن صارت الحجاز ومصر إليه ، ويكفّا السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال .

٤ — عليّ وابن عباس :

ذكر د. طه حسين أن المحنة نزلت بعليٍّ حتى من أقرب الناس إليه : عبد الله بن عباس ! لقد أرسل أبو الأسود الدؤلي إلى عليٍّ : أن عبد الله بن عباس والى البصرة قد أكل ما تحت يده .

فكتب إلى ابن عباس يسأله . فنفى ما بلغ عليًّا ..

فطلب إليه أن يقدِّم حساب ما أخذ وما صرف .

فطلب إليه ابن عباس أن يرسل من يلي أمره .. ورحل ..

وروى أنه جعل معه من أخواله : بنى هلال من يحميه ، وحمل أموال بيت المال ، وكانت ستة ملايين ، ورحل إلى مكة . وقال لابن عمه حينما كتب إليه يطالبه بما حصّل ، وإلا فحسابه على الله : إنه يؤثر أن يلقى الله وفى ذمته شيء من أموال المسلمين ، على أن يلقى الله وفى ذمته تلك الدماء التى سفكت يوم الجمل وصفين والنهروان ؛ وأنه سفك هذه الدماء فى سبيل الملك ، وأنه لم يقاتل قومًا كانوا له ظالمين . ثم يقول : ومن العجيب أن المحدثين لم يذكروا هذه الحادثة .

(الفتنة الكبرى ٢ / ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٢)

وإذا كان الطبرى هو الآخر قد ذكر هذه الرواية ، إلا أنه روى ما ينفيها ، وإن كانت أقل رواة ، وهى الأليق بعليٍّ وعبد الله بن عباس . .

فقد روى أن ابن عباس لم يبرح البصرة حتى قتل عليّ ، وشخص مع الحسن ، فشهد الصلح بينه وبين معاوية ، ثم رجع إلى البصرة ، فحمل معه مالا قليلا ، وقال : هى أرزاق . (تاريخ الطبرى ٥ / ١٤٣)

ولقد روى المسعودى ما يؤيد هـذا الوفاء وهذه الطهارة ، فلقد
نزل على معاوية ، وقد آلت إليه الأمور ..

فسأله عن الراشدين الثـــلاثة ، ثم عن علىّ بن أبى طالب . .
فقال : رحم الله أبا الحسن !.. كان والله علم الهدى ، وكهف
التقى ، ومحل الحجا ، وبحر الندى ، وطود النهى ، وكهف العلا للورى ،
داعياً إلى المحجة العظمى ، متمسكاً بالعروة الوثقى !.. خير من آمن
واتقى ، وأفضـــل من تقمص وارتدى ، وأبرّ مَن انتقل وسعى ،
وأفصح من تنفس وقرأ ، وأكثر من شهد النجوى ، سوى الأنبياء
والنبى المصطفى صلى الله عليه وعليهم وســـلم : صاحب القبلتين ،
فهل يُوازِيه أحد ؟ وأبو السبطين ، فهل يقارنه بشر ؟
وزوج خير النسوان ؟ فهل يفوقه قاطن بلد ؟ !
للأسود قتّال ، وفى الحروب خَتّال ! لم ترعينى مثله ولن ترى !
فعلى من انتقصه ، لعنة الله والعباد ، إلى يوم التناد .
قال معاوية : يا ابن عباس . لقد أكثرت فى ابن عمك ؛
(تاريخ مروج الذهب ٢/ ٨٤ ، ٨٥)

وعدم ذكر المحدثين لهذه الحادثة دليل عدم وقوعها ، لأنها لو ثبتت
لكانت كافية بتجريحه وعدم الرواية عنه ، عملا بقواعد العدل والتجريح ..
ولا حرج فى تجريح من يرتكب مثل هذه الفعلة الشنعاء والخيانة
الشائنة ، فى وقت يوجب المؤازرة والوفاء .

٧ – استشهاد علىّ

دعا علىّ رؤساء القوم، وأوقفهم عَلَى الحال.. وذكر لهم أنهم إن ينهضوا إلى الحرب، خرج بمن يخرج معه، وقاتل حتى يبلى فى سبيل الله، ويلقى الموت فى ذات الحق.

واستخزى الرؤساء فى أنفسهم من أن ينفذ ما هددهم به، فيلزمهم العار، فجعل كل منهم يعظ قومه ويحرضهم حتى اجتمع لعلىّ جيش عظيم صالح، وتعاقد الجنـــد على الموت، وأرسل علىّ إلى عماله يستحثون من عندهم..

وبينما علىّ فى ذلك، إذا بالقضاء يقول كلمته، فينتقض عليه وعلى أهل العراق كل تدبير.

(الفتنة الكبرى ٢، ١٥٥ – ١٥٧)

لقد اجتمع ثلاثة من هؤلاء الخوارج الذين سبق وصفهم (عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمى). وبعد أن عابوا ولاة الناس وما عليه الناس من خلاف، وذكروا أهل النهر، قالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم، فقد كانوا إخواننا دعاة الناس لعبادة ربهم، وكانوا لا يخافون فى الله لومة لائم (كانوا هكذا مخلصين، لكنهم تطرفوا فى غير موضع، وتجاوزوا الحق فى غير ما يجوز، ونسوا تبعا لذلك حقوق الوالى والطاعة وعدم إكراه الناس، وحرمة الدماء والإنسان!

وقالوا : فلو شرَيْنا أنفسنا ، فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم ، فأرحنا منهم البلاد ، وثأرنا لإخواننا ..

وكان ابن ملجم لعلىّ ، وهو من مصر ، والبرْك لمعاوية ، وعمرو بن بكر لعمرو بن العاص .. وكان موعدهم السابع عشر من رمضان يوم الجمعة لسنة أربعين من الهجرة .

وفى ليلة الجمعة اعتكف بعض الصحابة فى المسجد ، وجلس ابن ملجم وصديقان له بالمسجد مقابل الباب الذى يخرج منه علىٌّ . .

فلما خرج لصلاة الصبح وهو ينادى للصلاة ، كأنه يوقظ النائمين فى المسجد ، ضربه شبيب ، فوقع السيف بعضادة الباب (الطاق) !..

وضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف . وهرب وردان إلى منزله !..

ولما علم رجل من قومه بما حدث علاه بالسيف . . وهرب شبيب . . ولحق به حضرمى ، وأخذ منه السيف وجثم عليه . ولما أقبل الناس تركه خوفاً من أن يظنوه القاتل ، لمكان السيف من يده .. فغاب فى الناس ، وقتله رجل من قومه .. وشدّ الناس على ابن ملجم ، وضربه رجل من همدان بالسيف فصرعه ، وأخذه الناس .

ودفع علىّ جعدة بن هبيرة ليصلى بالناس الغداة ، ثم قال : عَلَىَّ بالرجل فأدخل عليه . فقال : أى عدو الله ، ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى . قال : فما الذى حملك على هذا ؟ !

قال : شحذته أربعين صباحاً ، وسألت الله أن يقتل به شرّ خلقه ! (وهذا لون من الهوس الذى يظن أنه من الدين) .

قال عليٌّ : ما أُراك إلا مقتــولا ، وما أُراك إلا شر خلقه

وأمر بأن يقتل دون تمثيل به إذا مات عليّ ، وإذا عاش رأى فيه رأيه . ودخل عليه جندب يعرض البيعة للحسن ..

فقال : لا آمركم ولا أنهاكم . أنتم أبصر .

أما البرك فقد ضرب معاوية حين خرج لصلاة الغــداة ، فوقعت الضربة فى إليته .. وأُخذ الرجل وقتل ..

وعالج الطبيب معاوية بشربة تمنع الولد ، وقال : يكفى يزيد وعبد الله .. وأبى أن يكوى بالنار لأنه لا يُطيقها .

وأما عمرو بن بكر ، فلم يقتــل عمرو بن العاص ، إذ مرض فى تلك الليلة ، فلم يخرج ، وكان والى مصر ، وخرج صاحب الشرطة للصلاة فقتله عمرو ..

فلما أُخذ إلى ابن العاص بهت ، وقال : إذن مَنْ قتلتُ .

قال عمرو : أردتنى ، وأراد الله خارجة .. وأمر بقتله .

ولما بلغ عائشة استشهاد عليّ ، قالت :

فألقت عصاها واســتقر بها النوى

كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

(تاريخ الطبرى ٥/١٤٣ ـ ١٥٢)

لقد عاش عليٌّ بعد الضربة الجمعة والسبت ، ولقى ربه ومحمداً صلى الله عليه وسلم والأحبة ليلة الأحد ، ودفن فى مسجد الكوفة ، وقيل : نُقل ودفن بالبقيع ، وقيل : حُمِل على جمل فى تابوت فتاه فى الصحراء ، فدفن فى وادى طَيِّئ .

(مروج الذهب ١ / ٥٥٨ طبعة كتاب التحرير)

هكذا ألقى علىّ عصاه بعد طول ترحال بأرض العراق ، لقى فيه الشقاء والعناء من ألوان مختلفة من الناس من طلاب الدنيا ومتاعها الزائل ، كمعاوية وعمرو بن العاص ، ومِن متآمر حاقد ، كالأشعث ابن قيس ومن طاوعه ، ومن متدينين مغرورين بفقههم وحفظهم متهوسين ، لا يرجون لله وقارًا ـ وقد يكون بينهم دخلاء مفسدون ، وهم الخوارج ـ ومن صلحاء أتقياء ، التبس عليهم الأمر وحالت بينهم وبينه ظروف ، فلم يتم التفاهم إلا بعد وقوع المحنة ، كطلحة والزبير وعائشة ومن تبعهم ، وأصابته المحنة من هؤلاء الذين شبوا على جهل بالإسلام ، واستهانة بأخلاقه ، ومُثُله ، وهؤلاء هم العبيد من الأمم المغلوبة والأعراب الغلاظ الجهلاء ، ومن طمع فى الجاه والحياة من أبناء الصحابة ولو على حساب دينه !..

كل هؤلاء أتعبوه وأشقوه أربع سنين وتسعة أشهر إلا يوماً ، لم يزل فيها مقهورًا منذ ولّى الخلافة منقوصا .. وهو يعرف أن الطريق

الذى يصلح دنياه ، الإغراء بالمال والمناصب والإرهاب والتخويف لـكنه يفسد عليه أخراه !.. فلم يقدم عليه ، وقال :

ولِمَ أفعلُ ما لا ينبغى أن أفعل ؟

وقد أوصى أولاده حين ضرب وحين حضرته الوفاة ، ويحسن أن أذكر طرفاً منها لتصويرها مبادئه وخلقه وسياسته وبصيرته التى عاش بها ، مما أوصى به الحسن والحسين قوله :

(أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ،
ولا تبكيا على شىء زُوِىَ عنكما . (لأنه خبرَها) .
وقولا الحق . وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف ، واصنعا للآخرة ،
وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم ناصراً ،
واعملا بما فى كتاب الله ،
ولا تأخذكما فى الله لومة لائم !..)

ثم نظر إلى محمد بن الحنيفة . وقال :

(هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟)

قال : (فإنى أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك (لأنه أصغر منهما) لعظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ، ولا تقطع أمرا دونهما .)

ثم قال : (أوصيكما به ، فإنه سيفكما ، وابن أبيكما . وقد علمتما أن أباكما كان يحبه .)

وقال للحسن :

(أى بنى .. أوصيك بتقوى الله ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء ، فإنه لا صـــلاة بغير طهور ، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة !.. وأوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم عند الجهل ، والتفقـه فى الدين ، والتثبت فى الأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش .)

(وهى كلها مبادئ إسلامية عمل بها ، وخبرات عملية خبرها ، وعلاج لأمراض هذا المجتمع) .

ولما حضرته الوفاة أوصى :

(بسم الله الرحمن الرحيم ،

هذا ما أوصى به « علىّ بن أبى طالب » .

أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وأن محمدا عبد الله ورسوله ،

أَرْسَلَهُ ﴿ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

ثم ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

ثم أوصيك ـ يا حسن وجميع ولدى وأهلى ـ
بتقوى الله : ربكم ، وألا تموتن إلا وأنتم مسلمون .
واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ،
فإنى سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول :
« إِنَّ إِصْلاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ :
أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاةِ والصِّيَامِ » .
انظروا إلى ذوى أرحامكم ، فصلوهم :
يهوّن الله عليكم الحساب .
اللهَ اللهَ فى الأيتام ،
فلا تَغبُوا أفواههم ، ولا يضيعُنّ بحضرتكم .
واللهَ اللهَ فى جيرانكم ،
فإنه وصية نبيكم صلى الله عليه وسلم .
مَا زَالَ يُوصِى بِهِ ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُورِّثُهُ ! .
واللهَ اللهَ فى القرآن ، فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم !..
واللهَ اللهَ فى الصلاة ، فإنها عمود دينكم !..
واللهَ اللهَ فى بيت ربكم ،
فلا تخلوه ما بقيتم ، فإنه إن ترك لم يناظر !..
واللهَ اللهَ فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم !..

والله الله في الزكاة ، فإنها تطفئ غضب الرب !..

والله الله في ذمة نبيكم ،

فلا يظلم مَنْ بين أظهركم !

والله الله في أصحاب نبيكم ؛

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بهم !..

(وكانوا قد أصبحوا في هذا الخضم الطاغي كالشعرة البيضاء أو الملح في الماء يستهان بهم كما رأينا) .

والله الله في الفقراء والمساكين ، فأشركوهم في معايشكم !..

والله الله فيما ملكت أيمانكم !.. والصلاة الصلاة !..

لا تخافُنّ في الله لومة لائم ،

يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم !..

وقولوا للناس حسناً كما أمركم الله !..

(فلا فظاظة ولا غلظة كما فعلت الخوارج) !..

ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيولَّى الأمر شرارُكم ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم !..

وعليكم بالتواصل والتبادل ، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق (كما صنعت الأمة في عهده) !..

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

حفظكم الله أهل البيت ، وحفظ فيكم نبيكم .

أستودعكم الله ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله ..) ثم قال : (لا إله إلا الله . .) ولقى ربه . . رضي الله عنه وكرّم وجهه . .

وقد غسّله ابناه : الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر ، وكُفِّنَ فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، وكبّر عليه الحسن أربع تكبيرات .

وكان قد نهى عن المُثلَة وقال : لا يقتل إلا قاتلى : ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل . فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ أَنَّهَا بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ » .

وتقدم الحسن فقتل ابن ملجم ، ثم أخذه الناس فأدرجوه فى بوارىّ .. ثم أحرقوه بالنار . (تاريخ الطبرى ٥ / ١٤٧ ـ ١٤٩)

وكانت وفاته ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقين من رمضان سنة أربعين هجرية ، وقال محمد بن الحنفية : كانت سنه ثلاثا وستين سنة .. رضى الله عنه . (تاريخ الطبرى ٥ / ١٥٢)

وكان رضى الله عنه قد رأى مقتله ، وقد قدم عليه قوم من خوارج البصرة ، فقال له الجعد : الله ، الله ، يا علىّ . فإنك ميت . فقال علىّ : بل مقتول ! ضربة على هذا تخضب هذه . (يعنى على رأسه تخضب دماؤه لحيته) . عهد معهود ، وقضاء مقضى ، وقد خاب من افترى ..

وعاتبه فى لباسه . فقال : ما لكم ولباسى ! هو أبعد من الكبر ، وأجدر أن يقتدى به المسلم . (المسند ٢ / ٨٨)

وقد رثاه ابنه الحسن ، إذ خطب بعد مقتله فقال : لقد فارقكم رجل بالأمس ، لم يسبقه الأولون بعلم ، ولا يدركه الآخرون ، كان يبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالراية ، جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن شماله ، لا ينصرف حتى يُفتح له !.. ما ترك صفراء ولا بيضاء ، إلا سبعمائة درهم ، رصدها الخادم لأهله .

(المسند ٣ / ١٦٧ ، ١٦٨)

ورثاه أبو الأسود الدؤلى فقال :

قتلتم خير من ركب المطايا ورحّلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثانى والمئينا
إذا استقبلت وجه أبى حسين رأيت البدر راع الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرها حسباً ودينا

(تاريخ الطبرى ٥ / ١٥٣)

نعم خيرها حسباً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخيرها خلقاً ، وخيرها ديناً ، عليه رحمات ربى وصلواته ، وإليه تحيات مباركات من كل المؤمنين .

٨ ـ أخلاقه وصفاته

(١) النخوة :

كانت النخوة طبعاً فى علىّ فطر عليه ، وأدباً من آداب الفروسية وللأسرة الهاشمية ، ولا سيما فى معاملة الضعفاء والنساء ، فلم ينس الشرف قط ، ولم يغتنم الفرصة إذا واتتــه لأنه أراد الانتصار الشريف : لقد منع أنصار معاوية الماء فى «صفين» عن جنـد علىّ !..

فلما انتصر جنده وغلبوا على الماء ، أخلاه لجند معاوية .

ولما انتصر على أهل البصرة لم يبيـح أموالهم للجنود ، وقالوا : أباح لنا دماءهم ، ولم يبح أموالهم . فقال لهم : إن القوم أمثالـكم ، من صفح عنا فهو منا ونحن منه .

وكان لا يقتـل مدبراً ، ولا يجهز على جريح ، ويأمر بذلك وبألا يكشفوا ستراً ، ولا يمدوا يداً إلى مال . وسقط عمرو بن العاص إلى الأرض مـكشوف السوءة ، فصد عنه ، وأنف أن يصرع رجلا يخاف الموت ، فلا يدرى بانـكشاف عورته !..

وكان يكره السباب ، فلما سمع قوماً يسـبون أهل الشام قال : لا تـكونوا سبابين . ولـكن لو وصفتم أعمالهم وذكرتم ظلمهم ، كان أجود فى القول وأبلغ فى العـدو ، وقلتم : اللهم احقن دماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم .. وقد رأينا مروءته مع عائشة ومع الجرحى المختبئين ، ومع إحدى قريباته التى سبته عندما زار عائشة .

(عبقرية الإمام ١٠ ـ ١١)

(٢) شجاعتـــه :

كانت شجاعته نادرة ، فكان يترفع عن البغى ، ويتصف بالمروءة وسلامة الصدر ، وعدم الحقد ، لم يبدأ أحدًا بقتال ، وله عنه مندوحة .

وقال للحسن : لا تَدْعُوَنَّ إلى مبارزة ، فإن دعيت إليها فأجب ، فإن الداعى إليها باغ ، والباغى مصروع .

ولم يبدأ موقعة دون أن يدعو إلى السلم ، ولم يأخذ ثأرًا إلا بمقدار الحق .

صاح فى « صفّين » جندى : من يبارز ؟ فصرع ثلاثة من رجال علىّ . وخاف الناس ، فخرج إليـه علىّ فصرعه .. ونادى حتى أتم ثلاثة : ثم أسمع الصفوف : أيها الناس . إن الله تعالى يقول :

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ .

ولو لم تبدءونا ما بدأناكم . ثم رجع .

ومن سلامة صدره : نهيه عن التمثيـل بالقتلى (وهو أيضًا خلق إسلامى) ، وبكاؤه على طلحة ، ورثاؤه . وأوصى أتباعه بألا يحاربوا الخوارج من بعده ، وهم أخطر عليه من معاوية ، لأنه رآهم مخلصين لما يعتقدون ، وإن كانوا مصرّين على خطئهم معاندين .

(عبقرية الإمام ٨ ، ٩)

(٣) اعتزازه وثقته بنفسه :

قال له قيس بن سعد بعد أن عزله عن مصر :

إنك والله ما علمت لتنظر الخيلاء .

وقال الزبير للنبي صلى الله عليه وسلم عنـــدما مرّ به عليّ :
لا يدع بن أبي طالب زهوه .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّهُ لَيْسَ بِهِ زَهْوٌ ، وَلَتُقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ » .

فما كان به زهو ولا خيلاء ، ولـكنها الثقة ، لهذا تصدى لعمرو ابن ود بطل العرب فى الجاهلية ، والنبي صلى الله عليه وسـلم يجلسه ويحذره : اجلس إنه عمرو بن ود .

فيقول : وإن كان عمرًا !.. وقام مرّة بعد مرّة . وكان واثقًا فى علمه ومعرفته كذلك ، فطلب إليهم أن يسألوه قبل أن لايجدوه .
(عبقرية الإمام ١٢ ــ ١٥)

(٤) صراحتـــه :

كان لا يخفى شيئًا من أخلاقه ، أو يتظاهر بما ليس من خلقه . فإذا أثنى عليه الرجل بمـا ليس يعتقد به ، أعلنه بذلك وقال : أنا دون ما تقـول ، وفوق ما فى نفسك . فـكان دائمًا صادقًا صريحًا جريئًا ؛ حتى فى أشد الأزمات التى تقتضى المصانعة وجمع الرجال .

وكان يقول : علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون فى حديثك فضل (زيادة) على عملك ، وأن تتقى الله فى حديث غيرك . (عبقرية الإمام ١٥ ، ١٦)

(٥) صدق تقواه وزهده :

لا يعرف أحد من الخلفاء أزهد فى الدنيا ولذاتها منه ، فكان كأبى بكر وعمر . كان وهو أمير المؤمنين يأكل خبز الشعير تطحنه امرأته بيديها ، ويختم على الجراب حتي لا يدخل فى بطنه شىء لا يعلم مصدره .

قال عمر بن عبد العزيز : أزهد الناس في الدنيا علىّ بن أبى طالب .

وقال سفيان : إن عليًا لم يبن لبنة على لبنة ، ولا آجرّة علي آجرّة ولا قصبة على قصبة ، وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخصاص التى يسكنها الفقراء ، وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام .

وقال عقبة بن علقمة : دخلت على علىّ كرم الله وجهه ، فإذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته ، وكسر يابسة .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟

فقال لى : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل أيبس من هذا ، ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإن لم آخذ بما أخذ به ، خفت ألا ألحق به

وكان أبعد ما يكون عن ضيق الصدر وكزازة النفس ، حتى كانت فيه دعابة سمحة يتبسط بها إلى أصحابه ، دون تبذل ولا إسراف .

(عبقرية الإمام ١٦/١٨٠)

وكان لا يفرض على غيره الزهد ولا يحرم متاع الحياة ، شأنه في ذلك شأن الشيخين قبله . فقد رأينا كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمتعون بطيبات الحياة ، وتكثر لديهم الثروات ، ويؤدون حق الله في أموالهم دون أن يعترض عليهم أحد ، ومنهم عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير .

وكان عليّ يقيم للناس صلاتهم ويعظهم ويفقههم ويبصر بما يحب الله وما يكره للمسلمين . .

وكان يعظهم جالساً على المنبر وفي المسجد ، وقائما ، ويسألهم عن أحوالهم ، ويجيب على أسئلتهم في دينهم ودنياهم ، وكان قدوة حسنة لهم بسيرته ، وكان يخالطهم في الأسواق : يأمرهم بتقوى الله والوفاء بالكيل والميزان ويؤدب بالدِّرَّة المخالفين . .

ولما رأى أنها أصبحت لا تكفي ، وأنهم في حاجة إلى السياط ، أبى وقال : لا أصلحكم بهلاك نفسي ، واكتفى بالخيزرانة ..

وكان يقوم على إطعام الفقراء وطعام المشاء ، ويتحرى ذوي الحاجات منهم ، فأغناهم عن المسألة .

وكان إذا أراد أن يشترى شيئا اشتراه بنفسه من رجل لا يعرفه حتى لا يحابيه !.. وكان يخلد إلى نفسه إذا كان الليـــل فينصرف إلى عبادته الخاصة مصليا متهجدا حتى يتقدم الليل ، فينام لغلبة النوم ، ثم يخرج فى الغلس لصلاة الفجر ، ينادى : الصلاة الصلاة ، يا عباد الله . كأنه يريد أن يوقظ من أوى إلى المسجد ، وكان يذكر الله فى كل لحظة ، وكثيرا ما سأل الناس عن أمور دينهم .. يصدر في ذلك عن تقوى الله وخشيته وابتغاء رضاه .

وكان إذا قسم شيئًا بين النـاس ، اعتذر إذا كان القسْم قليلا فيقول لهم : إن الشىء يرد علينا فنراه كثيراً ، فإذا قسمناه رأيناه قليلا .

وكان شديد الحرص على المساواة بين الناس فى قوله وعمـله وفى وجهه وفى قسمته المـال ، ولا يزيد فى العطاء لمن يطلب المزيد ، جاءته امرأتان تسألان ، فاشترى لهما بعض رجاله طعاما وثيابا ، وأعطاهما مالا . فسألته إحداهما أن يزيدها ، فأخذ شيئًا من تراب فنظر فيه ثم قال : لا أعلم أن الله فضل أحدا من الناس على أحد إلا بالطاعة والتقوى .
(الفتنة الـكبرى ٢ / ١٥٦ ، ١٥٧)

والتزم هـذه السيرة مع أقرب الناس إليه . . جاءه أخوه عقيل مسترفدا . فبعث ابنه الحسن ليشترى له ثوبا جديدا ونعلين جديدتين من عطائه ومن ماله الخاص ، ولم يعطه من بيت المال .

(الفتنة الـكبرى ٢ / ٦٥)

لقد كانت سياسته وسيرته هى سيرة الشيخين من قبله ، إلا أنه خالف عمر فى ألا يبقى شيئاً فى بيته . وكان عمر يبقى فيه مازاد للطوارئ . أما علىّ فكان يوزع ما يرد من المال على الناس ! . . ويحب أن يكنس ويرش ويصلى فيه ركعتين ، فإن ذلك أتقى لنفسه .

(الفتنة الكبرى ٢ / ١٥٧ – ١٦٠)

(ولعل ذلك لأن الموارد المالية صارت غير وفيرة .)

(٦) فطنتــه وذكاؤه وعلمه :

كان له منها نصيب وافر لا ينكره منصف ، وقد أشار على عمر وعثمان أحسن مشورة فى مشكلات الحكم والقضاء ، وجعل من الدين موضوعا للتفكير والتأمل ، ولم يقصره على العبادة والأحكام . ويصح أن يقال إن عليًّا أمير علم الكلام فى الإسلام ، لأنّ المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساس علمه ، فواصل ابن عطاء كبيرهم تلميذ أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، ومحمد تلميذ علىٍّ : والده ، رضى الله عنه .

والأشعرية ينتسبون إلى أبى الحسن الأشعرى وهو تلميذ أبى علىّ الجبائى تلميذ واصل بن عطاء ، الذى يرجع علمه إلى علىّ .

وفى الفقــه كان أبو حنيفة قد قرأ على جعفر بن محمد الذى قرأ على أبيه محمد ، وقد أخذ محمد عن علىّ . وقرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأى وقرأ ربيعة على عكرمة ، وعكرمة عن عبد الله بن عباس وعبد الله عن علىّ بن أبى طالب . .

وقال : إن علمه إلى علم ابن عمه كقطرة إلى بحر . .

أوَ نحن نعلم ما علم ابن عباس ؟!

وكان عليٌّ يتتلمذ على القرآن الكريم ويستمد منه ويستوحيه فى عرفان إسلامه وإيمانه . . وكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة سماوية قرآنية ، فكان قدوة فى الاجتهاد والنظر .

ومن أمثلة حكمه فى القضاء : أن عمر بن الخطاب استفتاه فى امرأة حامل جىء بها زانية . . فأفتى بالإبقاء عليها حتى تضع . وقال له : إن كان لك سلطان عليها ، فليس لك سلطان على جنينها .

وانتزع امرأة من بين الموكلين بإقامة الحد عليها ، وقال لعمر : إنها مبتلاة بنى فلان ، وقد رفع القلم عن المبتلى حتى يعقل ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم . فلعله أتاها وهو بها ، قال عمر : لا أدرى ، قال علىّ : وأنا لا أدري . فترك رجمها للشك فى عقلها .

وعفى علىّ عن امرأة أجهدها العطش واستسقت راعيا ، فأبى أن يسقيها حتى تمكنه من نفسها ، ففعلت . . وأخلى سبيلها لأنها مضطرة .

(عبقرية الإمام ١٢٥)

أما فن الكلمة الجامعة لفرائض الحكمة ، فقد كان له منها نصيب كبير ، فقد أوتى من طراز جوامع الكلم ما لا يفوقه طراز آخر فى حكمة السلوك ، وفى أسلوب (الأمثال السائرة) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« عُلَماءُ أُمَّتِي كَأَنْبِياءِ بَنِي إِسْرائِيلَ » ،

وعليّ من هؤلاء العلماء . . ويزيد أن صور حكمه فى أبدع تعبير وأوفر نصيب من ذوق الجمال ! .. من ذلك قوله :

« نَفَسُ المرء خُطاه إلى أجله »

« من يُعط باليد القصيرة ، يعط باليد الطويلة » ،

« المرء مخبوء تحت لسانه » ،

« الحلم عشيرة » ،

« من لان عوده كشفت أغصانه » ،

« كل وعاء يضيق بما جعل فيه ، إلا وعاء العلم ، فإنه يتسع » .

وأقواله تصور شخصيته كقوله :

« صواب الرأى بالدول ، يُقبل بإقبالها ، ويُدبِر بإدبارها » (أى إذا أقبلت الدولة كان صاحبها صائب الرأى دائما) .

و « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » ،

و « شاركوا الذى أقبل عليه الرزق ،

فإنه أخلق للغنى ، وأجدر بإقبال الحظر عليه »

و « إذا هِبْتَ أمرا ، فقع فيه ، فإن شدة توقّيه أعظم مما تخاف منه »

و « لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع

ولا يضارع ، ولا يتبع المطامع » .

وله حكم عامة كقوله : « كل معدود منقضٍ وكل منقض متوقع آت » و « إذا كثرت القدرة قلت الشهوة » و « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » و « من نصب نفسه للناس إماما ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

وله حكم سائرة فى مواقف مرتجلة . تردد أنصاره فى مهمة كلفهم بها ، فخرج لها ، فقالوا : يا أمير المؤمنين . نحن نكفيكهم (الأعداء) . فقال : ما تكفوننى أنفسكم . . فكيف تكفوننى غيركم ؟ ! إن كانت الرعايا قبلى تشكو حيف رُعاتها ، وإننى اليوم لأشكو حيف رعيتى ، كأننى المَقُود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة ! ..

وبلغه قتل محمد بن أبى بكر على أيدى أصحاب معاوية ، ز مرقه فى بطن حمار ! .. فحزن وقال : إن حزننا عليه قدر سرورهم به ، إلا أنهم نقصوا بغيضا ونقصنا حبيبا .

وله خطبه وكتبه ، وقد قدمت بعضها ، وكلها روائع فى البلاغة والتعبير ، وله ثقافته العسكرية . إن ثقافة الإمام هى ثقافة العَلَم المفرد والقمة العالية بين الجماهير فى كل مقام ، وإنها ثقافة الفارس المجاهد فى سبيل الله يجاهد بالسيف والقلم ، ويتشابه فى الجهاد بأسه وتقواه ، فهو بالبأس زاهد فى الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد فى الدنيا مقبل على الله . (عبقرية الإمام ١٤٨ ـ ١٥٣)

(٧) سياسته :

كان عمر عندما وفر المال فى بيت المال أنظر للمصلحة العامة ، وكان علىّ أشـد احتياطا لنفسه عندما لم يبق فيه شيئاً ، بل سـوّى بين الناس فيـه ووزعه كله . وكان يأبى أن يميز أحدا من أهله . تزينت ابنته بعقد لؤلؤ من بيت المال .. أخذته عارية مضمونة مردودة ، فسأل الخازن عمن أعطاها . فقال : أنا يا أمير المؤمنين ، زينتُ ابنة أخى ! ومن أين كانت تقدر عليها ، لو لم أعطها ... فأنب القائم على بيت المال ، وقال قولته المشهورة : « ويل لابنتى ! لو كانت أخذت العقـد على غير عارية مضمونة مردودة ، إذا لـكانت أول هاشمية قطعت يدها فى سرقة ! »

لأنه أعطاها على أن تردها بعد التزين بها .

وكان لا ينسى الحقوق العـامة للخلافة . ضرب رجل رجـلا . واحتـكما إليه ، ثم سامحه ، ولـكن عليًا لم يترك حق الدولة ، فضربه به وقال : هذا حق السلطان .

وكان دستوره فى تحصيل الضرائب أن النظـر فى عمارة الأرض أبلغ من النظر فى جلبها ، فـكتب إلى أحد ولاته : تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن فى إصلاحهم صلاحا لمن سواهم . ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لان الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وليـكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة . ومن طلب الخراج بغير عمارة ، أخرب

البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا ، وإنما يؤنى خراب الأرض

٨ — وتزوج محياة ابنة امرئ القيس بن عدى ، وولدت جارية من الولا ماتت صغيرة . وكانت تخرج إلى المسجد ، فيسألها الناس : مَنْ أخوالك ؟ وقد فتقول : وه ، وه ، تعنى كلبا : قوم أمها .

والصهباء أم حبيب بن ربيعة أم ولد من سبي تغلب ، أصابه خالد بن الوليد فى عين التمر . ولدت : عمر الذى عمَّر حتى بلغ خمسا وثمانين سنة ، ومات بينبع ، وولدت : رقية .

وله بنات أخريات من أمهات أولاد شتى ، لم تُسَمَّ أسماؤهن ، ومنهن : أم هانئ ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم الصغرى ، وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، ونفيسة . فيكون قد أصهر إلى بنى هاشم ، وكلاب ، وخثعم ، وتميم ، ووائل ، وكليب .

قال الواقدى : وكان النسل من الحسن ، والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، والعباس ، وعمر . فزوجاته سبع بعد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أمهات الأولاد . (تاريخ الطبرى ٥/١٥٣ ـ ١٥٥)

والذكور خمسة عشر ذكرا ، منهم : محسن ، الذى مات صغيرا ، وعون من أسماء بنت عميس ، وكلهم من الحرائر ، ما عدا يحيي وعونا ، وقيل : محمد الأصغر ابن أم ولد .

والبنات : خمس من الحرائر ، ماتت إحداهن طفلة ، وأربع عشرة بنتا من أمهات الأولاد .

٩ — على فى بيتـه

١ — لم يتزوج علىّ كرم الله وجهه غير فاطمة ، حتى توفيت بعد النبى صلى الله عليه وسلم بستة أشهر .. ورزق منها : الحسن ، والحسين ، وزينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى ، ومحسنا : توفى صغيرا .

٢ — ثم تزوج أم البنين بنت حرام فولدت : العباس وجعفرا وعبد الله وعثمان . وقتلوا مع الحسين فى كربلاء ، ولا عقب لهم غير العباس .

٣ — وتزوج ليلى بنت مسعود بن خالد ، وولدت له : عبيد الله وأبا بكر . وزعم هشام بن محمد أنهما قتلا مع الحسين بالطف . . وقال محمد بن عمر إن عبيد الله قتله المختار بن أبى عبيد بالمذان ، وأنهما لا عقب لهما .

٤ — وتزوج أسماء بنت عميس ، وولدت له يحيى ومحمدا الأصغر ، وقيل : إن محمدا الأصغر ابن أم ولد . وقال الواقدى : إنه قتل مع الحسين . وقال : إن أسماء ولدت يحيى وعونا .

٥ — وتزوج أمامة بنت أبى العاص بن الربيع ، وأمها : زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولدت محمدا الأوسط .

٦ — وتزوج خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة ، ولدت : محمدا الأكبر بن الحنفية ، وتوفى بالطائف ، وصلى عليه ابن عباس .

٧ — وتزوج أم سعيد بنت عروة بن مسعود ، وولدت أم الحسن ورملة الكبرى .

٨ — وتزوج محياة ابنة امرئ القيس بن عدى ، وولدت جارية ماتت صغيرة . وكانت تخرج إلى المسجد ، فيسألها الناس : مَنْ أخوالك ؟ فتقول : وه ، وه ، تعنى كلبا : قوم أمها .

والصهباء أم حبيب بن ربيعة أم ولد من سبي تغلب ، أصابه خالد بن الوليد فى عين التمر . ولدت : عمر الذى عمَّر حتى بلغ خمسا وثمانين سنة ، ومات بينبع ، وولدت : رقية .

وله بنات أخريات من أمهات أولاد شتى ، لم تُسَمَّ أسماؤهن ، ومنهن : أم هانئ ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم الصغرى ، وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، ونفيسة . فيكون قد أصهر إلى بنى هاشم ، وكلاب ، وخثعم ، وتيم ، ووائل ، وكليب .

قال الواقدى : وكان النسل من الحسن ، والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، والعباس ، وعمر . فزوجاته سبع بعد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أمهات الأولاد . (تاريخ الطبرى ٥/١٥٣ ـ ١٥٥)

والذكور خمسة عشر ذكرا ، منهم : محسن ، الذى مات صغيرا ، وعون من أسماء بنت عميس ، وكلهم من الحرائر ، ما عدا يحيي وعونا ، وقيل : محمد الأصغر ابن أم ولد .

والبنات : خمس من الحرائر ، ماتت إحداهن طفلة ، وأربع عشرة بنتا من أمهات الأولاد .

وكانت حياته فى بيته خالية من الشكوى التي ألفها الأزواج فى زمانه ، وكانت أحسن حياة زوجية بين أمثاله . وكان وافر الحظ من الذرية ، بقي منهم بعده كثيرون . وكان أبا سمحا يستريح الأبناء إلى عطفه ، ويجترئون على مناقشته الرأى فى أخطر الأحداث . وكان يزهيه أن يحيط به أولاده فى جحافل الروع عن يمينه وشماله !.. ومنهم من يحمل اللواء بين يديه .. وهو ذلك الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ! . واشتهر بالعطف على صغارهم ، كما اشتهر بمودة كبارهم .

وكان يقول : إن للولد على الوالد حقا ، كما أن للوالد على الولد حقا : حق الوالد على الولد أن يطيعه فيما لا إثم فيه ولا معصية لله سبحانه !.. وحق الولد على الوالد أن يحسّن اسمه ويحسّن أدبه ، ويعلمه القرآن . وقد اختار أسماء الصحابة فى تسمية أولاده .

وكانت معيشته معيشة الكفاف ، وأوجز ما يقال بشأنها : إنه كان يطحن لنفسه أو يُطحَن له ، ويأكل الخبز اليابس الذى يكسره على ركبته ؛ ويلبس الرداء الذى يرعد فيه . ولم يمت أحد من رعاياه عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين !..

(عبقرية الإمام ١٥٧ ـ ١٦٠)

كرم الله وجهه ، ورضي الله عنه ، وألحقنا به .

١٠ ــ هل اختفت الخلافة الإسلامية ؟

ليس المراد من هذا التعقيب النيل من مكانة الإمام علىّ ، ولا من أحد من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد رأيناهم فى الدراسات السابقة فى المكان اللائق بهم الذى يناسبهم كثمرة لتربية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على مائدة القرآن والإسلام ، بعد أن ناقشنا كثيرا من الشبهات التى ثارت حولهم ، وتبين لنا حسن القصد وطيب النوايا لديهم ، وابتغاؤهم وجه الله وحده ، وعلو المكانة فى الدار الآخرة وحدها ، ولم تخدعهم الحياة الدنيا بزخرفها ، ولم يندفعوا معها وراء طموحهم وشهواتهم ..

وكان فى مقدمة السابقين إلى الفضل ورفيع المكانة ، الإمام علىّ ابن أبى طالب الذى كان ضحية وفداء الخلافة الإسلامية والحرص على تطبيق مبادئها ، وقبل ذلك راضيا محتسبا .

وإنما المراد من هذا التعليق الوقوف على الدرس الذى يتعلمه المسلمون من سير الحوادث السالفة ، حتى لا تتفرق أمتهم ، ويقاتل بعضهم بعضا ، بل لكى تعود أمتهم إلى وَحدتها :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا » لا تنابز ولا تحارب ولا تقاتل ، مهما اختلفت الآراء والمذاهب ، مادام الأصل باقياً والأساس السليم قائماً ، فاختلاف الرأى المخلص لا يذهب للود قضية . . فكما تعلمنا الدروس السامية لهؤلاء الراشدين فى شئون حكمهم وسلوكهم وعبادتهم وبيوتهم ، فلنتعلم الدروس التى تعصم الأمة من الفرقة والخلاف ، ولننظر على ضوء ذلك : هل أخفقت الخلافة الإسلامية ، ولم تعد قادرة على الحياة فى عهده ؟ فهى من بعده أعجز عن العيش . أمْ ما هى الحقيقة !

أسباب تخاذل أصحاب علىّ :

بعد أن رأى أصحاب علىّ اقتراب النصر (يوم صفين) رأى العين ، امتنعوا عن مواصلة القتال ، وخالفوا توجيهات الإمام ، وعاندوه بل أرغموه على ما مكن العدوّ من النجاة من الهزيمة ، ثم أوقعوا الفرقة بين أصحابه والحرب المهلكة بينهم ! ثم تخاذلوا ولم يستجيبوا لدعوة علىّ إلى الشام مرة أخرى ، بل ورأوا معاوية يغسير على أطراف دولتهم دون أن يتحركوا ، أو تأخذهم غيرة ونخوة !..

وانتهى الأمر بعلىٍّ إلى اليأس : وقبول ما عرضه معاوية عليه ، من ترك العراق له ، والكف عن القتال بينهما .. فما أسباب ذلك ؟

١ — شمّ الدكتور طه حسين ورأى الأستاذ العقاد الخيانة فى موقف الأشعث بن قيس والحرص على خذلان علىّ وتفويت النصر عليه .

لقد كان من طلاب الدنيا لا يخلص لعلىٍّ ومبادئه .. (ولا شك أن له أتباعاً يعملون بتوجيهه) وإن لم تتضح الأسباب تمام الوضوح ، وتاريخ الأشعث يبين عن حرصه على الدنيا .

لقد أسلم فى عهد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدَّ بعد وفاته ، وألب قومه على المسلمين وورطهم فى الحرب ! .. ولما يئس أسلم وأسرع إلى المدينة ، وتزوج أم فروة أخت أبى بكر .. وخمل ذكره أيام عمر .. وظهر أيام عثمان ، فتولى له بعض الأعمال فى فارس . فلما همَّ علىّ بالنهوض إلى أهل الشام عزله عن ولايته . ويقال : إنه طالبه بشىء من مال المسلمين ، فبـكى علىٌّ أيام عثمان حيث كان لا يسأل عن شىء ، ثم استصحبه علىٌّ واستصلحه ..

(الفتنة الكبرى ٢ ـ ٨٨ / ٨٩) .

لقد كان يحرض على الفرقة فى جيش علىٍّ وخـذلانه ، وقد رأيناه ليلة الهرير الفاصلة يخطب قومه مخوفاً من الفناء ، وعلى مصير النساء والذرية .

ولما رفعت المصاحف كان فى مقدمة من طلبوا الكف عن الحرب لأن الناس طلبوا ذلك ، وطلب أن يبعثه علىٌّ إلى معاوية ، ليعلم ما يريد ، فعاد يطلب التحكيم ويلح عليه ، وأرغم عليًّا على الكف عن الحرب وقبول التحكيم ، وأرغمه على قبول من لا يرضاه حكمًا عنه ، وهو أبو موسى الأشعرى ، والنية الخبيثة ظاهرة ، وإن خفيت العلة .

(عبقرية الإمام ٦٩ ـ ٧٢)

وقد ذكرت فى معركة صفين حسده وغيرته مما أظهره الأشتر مالك بن الحارث فى المعركة من شجاعة ومهارة وتضحية وإخلاص وإصرار ، وقال فيما قال : وهل أشعل الأرض إلا الأشتر ؟ . وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ؟

وذكرت الحوار الساخن بينهما حتى الضرب بالسياط !.. فليذهب النصر كله ليتحطم نجم الأشتر !..

ويضيف د . طه حسين ترجيحه تواطؤه مع عمرو بن العاص على كل ماصنع إذا رجحت كفة علىّ ، فقد كان المعسكران مختلطين طيلة شهر المحرم ، ولعله رضى بمال معاوية كما كان يصنع معاوية مع خصوم علىّ . . واستدل على ذلك بإعلانه صحيفة قبول التحكيم على الجيش بنفسه يقرؤها أو تقرأ له فى كل مكان ، وقد حرموا عليًّا من اختيار من يرضي عنه ممثلا له !..　　　(الفتنة الكبرى ٢ / ٨٩ ، ٩٠)

٢ — كان فى جيش علىّ كثير من القراء والفقهاء ، وفيهم عدد كثير ممن غرّهم فقههم وتعصبوا لهوسهم وآرائهم ، ورأوا لذة فى العناد واللجاج وعدم الخضوع للحق ، وكل همهم الجدل بالباطل ، وهم الخوارج الذين تقدم الحديث عنهم وتمالؤوا بآرائهم على إمامهم وخليفتهم ، ولم يحاولوا أن يتعرفوا وجه الحق ولا حكم الإسلام الصحيح !..

وقد رأيناهم لا يكتفون بالكف عن الحرب عندما لاح النصر ، وقد رفعت المصاحف من قِبَل معاوية ؛ وإنما أصروا على منع الأشتر

من مواصلة الحرب ! . وقد تطلع إليه ورجح لديه ، وطلب إمهاله ساعة ، فأبوا بزعم أنهم يشتركون معه في المعصية !..

وهذا يجعلني أميل إلى القول بوجود بعض المتواطئين منهم مع معاوية أو عمرو في شهر المحرم ، مع إخلاص كثرتهم لما اعتقدوا ، ولو كان باطلا ، مما جعل عليًا يوصى بعدم محاربتهم من بعده !..

لقد ضيعوا عليه النصر ، وشاركوا في إرغامه على التحكيم ، وعلى قبول حكم لا يرتضيه .. ثم عادوا يكفرونه ، قبل التحكيم وبعده ، ويطلبون منه الاعتراف بالكفر ، والتوبة منه ، ويجادلهم فلا يفتحون لقوله عقلا .. ثم يطلب منهم العودة للقتال ، فيأبون ، لأنه غضب لنفسه والدنيا ، لا لله (على زعمهم) ويطلبون منه الاعتراف بالكفر والتوبة !..

ولم يقفوا عند هذا ، عندما تركهم ، وأذن لهم بغشيان المساجد ، وأجرى عليهم أرزاقهم ، بل كانوا يقاطعونه في المسجد وفي الصلاة . ثم عدوا على الناس ، وقطعوا الطريق ، وقتلوا المارة ، وتنطعوا في الدين ، فسار إليهم بمن تجمع لحرب الشام ، كطلب الناس ، وجادلهم فلم يقبلوا ، واستجاب بعضهم لدعوة الاعتزال .. ثم هاجموا رجاله طالبين الموت والرواح إلى الجنة !..

وهذا لون من الهوس ، وضلال العقل ، ووسوسة الشيطان ، وقد يكون من إغراء بعض المتواطئين الدخلاء .. وتمت إبادة هؤلاء المهاجمين .

ومن عجب أن يُحمَّل عليّ مسئولية إبادتهم، وقتل كل من خرج منهم، وتشحن النفوس من أجل الثأر لهم، والثأر لمن قتل يوم الجمل في صفين، ويكون خذلان عليّ هو الثمن، وحياته هي الثأر!..

وما أرى ذلك كله إلا أثرا من آثار المتواطئين على خذلان عليّ مع معاوية وعمرو، وإلا أثرا للعناد!.. قلوب ظنت الضلال هداية، والخروج على الإسلام إيمانا، والموت في سبيله شهادة!..

ودعا عليّ إلى الخروج إلى العدو، فتصدى له الأشعث بضرورة العودة إلى المصر، للاستعداد والمدد من أمير المؤمنين، وأذن عليّ بالراحة في المعسكر، وأمر بعدم مغادرته، والإقلال من زيارة النساء والأولاد.. ولكن بعد أيام تسللوا إلا القليل.. وأيأسوا عليًا، ولم يستجيبوا له.. وما ذلك إلا على يد أمثال الأشعث بن قيس.. فكان ما كان!..

٣ — يضاف إلى ذلك عامل ثالث، هو هذه الأجيال الناشئة «الجديدة» من أمهات غير عربيات، أو أسارى مسلمات وغير مسلمات، وهؤلاء الطارئون على الإسلام، والحافظون للقرآن، والعاجزون عن الفهم. فمنهم من لم يعرف حقيقة الإسلام، أو ضل في فهمه، ومنهم من لم يتأدب بأدب الإسلام، ولم يتربّ بتربيته، وقد حذر عثمان، وحذر أبو بكر وعمر، وحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبلهم من هؤلاء. أولئك القوم كانوا عبئا على عليّ، وأداة في الانحراف،

وعدم الطاعة . وقد رأيناهم فى حرب الجمل ، مشعليها ، والمخربين فيها ، وكذلك كانوا فى صفين وبعدها ، ولا شك في إمكان استمالتهم للدنيا ، وما أسرع اليأس إلى قلوبهم ، والانحراف عن المبادئ الإسلامية ، وعدم المبالاة بجريمة القعود عن الجهاد ، ومخالفة الإمام ، وعدم الحرص على الآخرة ، والرغبة فى الشهادة !.. وهؤلاء فى رأيى كانوا مصدر التخاذل ، وهم كثرة الناس ، مع توجيه القادة المنحرفين ، وأثر كثرة القتلى فى المعارك ، دون أن يروا ثمرة دنيوية ترغبهم فى المضى فى القتال . (عبقرية الإمام ٦٨ ، ٦٩)

٤ — وكان علىّ يقاتل فى سبيل المبادئ ويستمسك بحقائق الإسلام فى السلم والحرب مما يصرف عنه طلاب الدنيا ، وهم كثيرون فى أتباعه . وكان فى جيشه كثير من الأعراب والعبيد والسبئية والطارئين ، وقد أخذ على أيديهم فلم يأذن لهم بسلب المهزومين إلا ما كان في معسكرهم ، لأنهم مسلمون مثلنا ، وبذلك كفت تطلعهم إلى الحرب بكف أيديهم عن مطامع الحياة والمال .

٥ — وعلى الجانب الآخر كان جند معاوية يسمعون ويطيعون ولا يجادلون ، ولا يحاولون الجدال ، ولا يطلبون الفهم أو التفرقة بين الحق والباطل أو الحلال والحرام ، لأنهم لم يظهر بينهم من هؤلاء المجادلين والمعاندين والمدققين والمغرورين والمهووسين مثل من ظهر عند علىّ .

ولأن معاوية وعمرا كانا أصحاب دنيا ، فلم يقيدوا الناس بقيود الإسلام فى الحرب فأطلقوا أيديهم فى أموال المهزومين ووسعوا الرؤساء وغير الرؤساء بأموال بيت المال، يرضون مطامعهم المادية !.. واشترى معاوية رضا الرؤساء وكل من يرى فيه نفعا، وطمعَ كلٌّ طامع ، وأبعد من إمارته كل مناوئ ، وثبت نفسه منذ عشرين عاما ؛ لذلك لم يصادف ما صادفه علىٌّ فى جيشه أو أنصاره . (عبقرية الإمام ٣٣ / ٤٤)

٦ — لم تسمح مبادئ علىّ بالكيد والدس وشراء الذمم ، لكن سمحت مبادئ معاوية وعمرو ومثلهما بذلك كما سبق .

وبالتأكيد لو أن معاوية فى مكان علىّ ، وبين الظروف التى صادفت عليًّا ، لكان نصيبه الإخفاق والهزيمة التى منى بهما علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . فما نصيب علىّ من أسباب ذلك الخذلان ؟

سيطر الطارئون والأعراب والعبيد والغوغاء على المدينة ، وقتلوا عثمان بن عفان رضى الله عنه !.. وكان المخرج مبايعة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ ، ثم بيعة الطارئين ممثلين للأمصار ..

ثم بدأ النظر فى مشاكل الخلافة : أولاها دم الخليفة المقتول ، وثانيتها سيطرة الأعراب والعبيد والغوغاء على المدينة وشلّ يد السلطان ، وثالثتها امتناع معاوية عن البيعة . . وحاول علىّ التحقيق فى قضية الإمام المقتول . . ثم رأى علىٌّ أن السبيل هو الأناة حتى يقوى سلطان الخلافة وتتمكن من أخذ حق الخليفة المقتول .

وامتنع معاوية ، واتهم عليًّا بإيواء القتلة إن لم يكن هو القاتل !..

وحاول علىّ أن يضعف الطارئين برحيل العبيد والأعراب من المدينة ، فأبوا . . فماذا كان المخرج من كل هذه المآزق ؟

كان ابن عباس والحسن يريان أن لا يقبل علىّ البيعة ، وأن يجلس في داره أو ماله بينبع حتى تجول العرب باحثة عنه .

ترى لو فعل علىّ ذلك : هل كانت تحلّ هذه القضايا ؟

كان من الممكن أن ينفذ الثائرون تهديدهم بقتل كبار الصحابة : علىّ وطلحة والزبير وغيرهم ، ويفرضوا شخصا ضعيفا يطيعهم ويكون السلطان الفعلى لهم ! ولن يستسلم معاوية لهم ، بل لابد أن يبسط سلطانه على الشام ، وهو مكين على باقى الخلافة .

وكان من الممكن ألا ينفذوا تهديدهم ، ويتركوا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب يبحثون عن إمام ؛ فلا يجدون إلا عليًّا ، فيبايعونه بعد أن يعجز معاوية عن اتهامه بدم عثمان ؛ لكن أترى معاوية كان هو الآخر ، بعد أن ثبت نفسه ووطد ملكه فى عشرين سنة ، سيجول هو الآخر باحثًا عن علىّ ليبايعه ؟ بالطبع لا ؛ فقد أثبتت الأيام إصراره على الملك ، وسعيه إليه منذ زمن طويل ؛ فامتناع علىّ عن الخلافة لن يحل القضايا القائمة ، وكان حكيمًا فى تأجيله النظر فى القضية .

فى رؤيته أن الحل كان قوة الخلافة وتدعيمها لتناهض أعداءها، وفى عودته بها إلى مبادئ الإسلام ومثله من المساواة والعدل والأخوة، وإيثار ما عند الله على ما عند الناس ، والتوجه إليه وحده ، ولا خوف من أحد فى أمر الله .

فماذا اتخذ إزاء ضعف سلطان الخلافة من أسباب لتقوية سلطانها؟ عرض عليه طلحة والزبير أن يأذن لهما فيأتياه بخيل الكوفة والبصرة فأجّل النظر ! . أكان يخشى سلطانهما وطمعهما فى السلطان ؟. لا أظنه كذلك .. وإنما كان يخشى تجدد الفتنة وإراقة دماء المسلمين إذا أحسّ الطارئون بتحرك خيل الكوفة والبصرة . . وعرض عليه المغيرة أو ابن عباس أو هما معاً استصلاح طلحة والزبير - بعد أن جُرِّحا بالإكراه على البيعة العامة - واستعمالهما على الكوفة والبصرة أو اليمن والعراق . فأبى لأنهما طلبا منه أن يوليهما ، ولأنه لو كان يستعمل أحدا لضره أو نفعه لاستعمل معاوية وأبقاه ، ولم يذكر فيهما عيباً غير ذلك . وتاريخهما مع الراشدين السابقين يبين أنهما لا يريان إلا أن يعرف مكانهما ، ويقدمان مصالح المسلمين على مصالحهما ، فقد عاد طلحة وهو الذى لا يجب أن يفتات عليه فى الأمر ، بعد أن تمت البيعة لعثمان ، فذهب عثمان إليه فى داره ، وقال : لو كرهتَ رددتُ هذا الأمر . قال : أوتفعل ؟ قال : نعم .

قال طلحة : إذاً لا أرد أمراً رضيه المسلمون .

وكان في سنٍّ فيها شيء من الطموح هي سن قرب الخمسين .. أفلا يمكن إرضاء طموحه واستصلاح أمره وإرضاؤه وقد بلغ سن الرابعة والستين ؟ كان ذلك ممكنا لو حرص على استصلاحه وإقناعه بأن ماتم كان لخير المسلمين وإقناعه بسياسته ، وقد رأيناه اقتنع بها ورضى بالصلح فى موقعة الجمل ، حينما أقنعه القعقاع ، وحين عالجه علىّ محركا ضميره فى المواجهة ، ولكن بعد فوات الوقت . وكان شأن الزبير أيسر وأسهل ، وله قرابة لعلىّ ، ولا طموح له وفى سن الخامسة والسبعين ، ولا يغضبه إلا إهدار دم عثمان . ولما استبان له الأمر رضى بالصلح ، لكن فى وقت المواجهة ، وهو وإن أصلحه فلن يَصْلُح غيرُه من أصحاب المواجهة وقيام عناصر الإفساد ، ومن ثم قتل غدراً لما لَهُ من دور فى مواجهة المسلمين بعضهم بعضا .

الذى دفع عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ إلى رفضه استعمال المغيرة بن شعبة وطلحة والزبير رضى الله عنهم ، حين طلب المغيرة تقديم النصح له (معرّضا باستعماله) وحين طلب طلحة والزبير استعمالهما ، ومن قبله عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، لأنه يراه طالباً للولاية ـ الذى دفعهما إلى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأبى أن يولى من يطلب الولاية . . فقد أخرج مسلم : قال أبو موسى : أقبلت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعريين : أحدهما عن يمينى ، والآخر عن يسارى . . . فكلاهما سأل العملَ ، والنبى صلى الله عليه وسلم يستاك .

فقال : « ما تقول يا أبا موسى ؟ [أو : يا عبد الله بن قيس ؟] »

قال : قلت والله الذى بعثك بالحق ، ما أطلعانى على ما فى نفسيهما ، أو ما شعرت أنهما يطلبان العمل .

قال — وكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفته ، وقد قلصت —

فقال : « لن [أو : لا] أستعمل على عملنا من أراده . »

وروى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة ، قال :

قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا عبد الرحمن . لا تسأل الإمارة .. فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها . وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها ! »

ولاشك أن عليًا وعثمان رضى الله عنهما قد بلغهما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمسكا بعدم تولية من طلب الولاية ، وعزل من تولاها قبلهما .

ولكن ورد فى القرآن الكريم ما يجعل الحديثين السابقين مقصورين على من يطلب الولاية لنفع نفسه وإرضاء تطلعه للسلطان ، أو يكون عاجزا عن الولاية : فهذان لا نقبل توليتهما لأن فيها إضرارا بالمسلمين وإضرارا بهما . أما من طلب الولاية لنفع المسلمين قبل كل شىء ، وهو قادر عليها كطلحة والزبير ، فإنه لا تثريب علينا إذا استجبنا لطلبه ، بل إذا كان يحسن عملا لا يحسنه غيره وجب عليه طلب توليته ، وكل من يحسن الآن عملا يطلب أن يولى عليه ، ولا تثريب على الحاكم فى استجابته له مع وجوب المراقبة والمتابعة والحساب ، كما كان يفعل الراشدون الأربعة مع من يعمل معهم .

قد جاء هذا الرأى فى سورة يوسف ، حيث طلب من ملك مصر أن يوليه على خزائنها ، لأمانته ومحافظته عليها ، وقدرته على تدبيرها ، وعلمه به (وعلم وجود من يقدر عليه) قال :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

(التفسير الوسيط)

فلم يكن على علىٍّ وعثمان رضى الله عنهما مأخذ لو استجابا لأمثال هؤلاء ، ووقفا منهما موقف عمر بن الخطاب ، وقد سبق له استعمال بعضهما دون تحرج منه ، ولنفع ذلك المسلمين بعدم ضياع طاقتهما هباء . ولكن هكذا اجتهدا ، فلهما الأجر . . وهكذا أراد الله وقضى .. وما كانا يعلمان الغيب ، ولا يتنبآن بما سيكون !..

ويخيل إلىّ أن انشغاله بسيطرة هؤلاء المشاغبين ومحاولة إقصائهم ، شغله عن اتخاذ هذا الاتجاه . كما أن شدة مقاييسه التى سار عليها منعته من ذلك ، بالرغم من استعانة عمر بن الخطاب بكثير منهم ، مع الشدة فى المراقبة والشدة فى الحساب . . أما تطلُّب المثل العليا فى كل من يستعين به ولىّ الأمر ، فأمر بعيد المنال .

لقد شغلته هذه الحرب عن تحرير المدينة والخلافة من سلطان هؤلاء الغاصبين .

وقد اضطرته الظروف التى قدمتها فى أسباب التخاذل إلى الخوض فى معركة صفين ومعارك الخوارج ، ولم تكن له مندوحة عن خوضها ،

وإن حاول اجتنابها ، وبخاصة مع الخوارج من أنصاره ، مما أنهك قواه ، وانتهى بأصحابه إلى التخلي عن نصرته !..

لقد دفعته شدة التحرج من الإثم وشدة الحرص على سلامة دينه إلى أن يجرد الحق من كل سلاح يستعين به على الانتصار على الباطل ، وأنى يكون الانتصار بغير سلاح إلا بمعجزات السماء وقد مضى زمانها ؟ وكيف ، والله قد أمرنا بأن نعد للعدو كل قوة في مقدورنا ؟

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ .

وفرقٌ بين كيد وخديعة وتوهين للخصم وتفريق أتباعه بوسائل خسيسة كتلك التي اتبعها معاوية وعمرو في بعض الأحيان : كإقناع جماهير الشام بأن عليًا قاتل عثمان ، وأنه يؤوي قتلته في جيشه ، وكشراء الذمم والضمائر بأموال بيت المال ، وكاستئجار دهقان يدسّ السم في العسل لمالك بن الحارث (الأشتر) عند (القلزم كما قيل) عندما أرسله عليٌّ واليا على مصر ، بعد عزل قيس بن سعد ، فقتل ، وقال عمرو ابن العاص : إن لله جنودا من عسل ! (تاريخ الطبري ٤ / ٥٥٤)

كل هذا وأمثاله كيد آثم يعمل على نصرة الباطل ، لا يقبله الإسلام . لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكيد للعدو ، ويفرّق بين قواه بطرق شريفة ! لقد أسلم رجل في غزوة الأحزاب ، وقبل أن يعلن إسلامه قال له : خذِّلْ عنا .. واستطاع أن يفرق بين قريش ويهود المدينة ، بأن أدخل الشك في نوايا الفريقين تجاه بعضهم البعض !

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يستطلع أخبار عدو بشتى السبل الشريفة ، وكان يحرص على سلامة صفوف أتباعه من الخلل ، وعلى تجنب كل ما يستغله عدوه ضد المسلمين ؛ فقد أبى أن يقتل عبد الله بن أبيّ ، حين أشاع حديث الإفك وأوقع بين المسلمين ، وقال صلى الله عليه وسلم لعمر :

« لا أريد أن يتحدث العرب بأني أقتل أصحابي . »

وكان من تصرفه ما جعل ابنه وقومه يحملون عليه ، ويردونه عن الكيد للمسلمين ، مما جعل عمر يقول : لقد علمت أن سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من سياستي !..

ورأيناه يخدعه معاوية فيخدع ، حيث يريد أن يوقع بينه وبين قيس بن سعد عامل عليّ على مصر !.. وكان قيس من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب راية الأنصار ، وكان من ذوى الرأى والبأس .. وحاول معاوية ضمه إلى صفوفه في مكاتبات بينهما ، فاشتد قيس فى رده عليه ؛ فكاد معاوية له بأن أشاع فى الشام والعراق وثيقة زوّرها على قيس ، يزعم أنه بعثها إلى معاوية ، يستبين منها أنه يحسن إلى شيعة معاوية من العثمانية فى مصر (وكان قوم قد اعتزلوا في خربتا ، انتظارا للثأر من قتلة عثمان ، دون إظهار للعداوة) وذلك لكى ينقل جواسيس عليٍّ هذه الوثيقة إليه !.. وصدّق عليّ ، فبعث إلى قيس يطلب محاربة هؤلاء المعتزلين إن لم يعطوا البيعة . ونصح قيس بمساعدتهم ، وأبى عليّ إلا قتالهم .. فاستقال قيس من عمله ..

فأرسل علىّ الأشتر مالك بن الحارث ، حيث قتل مسموماً ! . فأرسل محمد بن أبى بكر ، وعاد قيس إلى المدينة ، وبيّن لعلىّ صدقه ..

وطلب منهم محمد البيعة فأمهلوه فأبى ، وكانت موقعة صفين واجترءوا على محمد بن أبى بكر ، فأرسل إليهم الحارث بن جهمان ، فهزموه وقتلوه .

ثم تمكن معاوية وعمرو من هزيمة محمد بن أبى بكر وقتله وحرقه ، وقدمت نجدةُ علىّ إليه بقيادة مالك بن كعب فى نحو ألف رجل .. فلما بلغه قتله ، أرسل من يرده من الطريق .

(تاريخ الطبرى ٤/٥٤٦ ـ ٥٥٧ ، ٥/١٠٦ ـ ١٠٨)

وقد حدد علىٌّ الفرق بينه وبين معاوية فى السياسة فقال :

والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر !..

ولولا كراهية الغدر ، لكنت من أدهى الناس ! .

(عبقرية الإمام ١٠٠)

لقد كان البلاء كل البلاء فى خبث الأجناد وشدة خلافهم (وقد قدمت أسبابه) . ولهذا كان سر علىٍّ يُعرف وسر معاوية يُكتم ، لأن معاوية يُطاع ونيته فى صدره ، وعليًا لا يطاع إلا إذا سئل عن نيته ، وما يحل وما يحرم منها فى رأى أتباعه !

ولا شك فى أن عليًا أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وجند أناساً وصدق فى وصفهم وتحديد طباعهم ، وأنه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور !..

ولكنه لزم الكفاية فى ذلك ، ولم يتجاوزها إلى الأمد الذى يسلكه بين الدهاة والموهوبين ، الذين يكيدون بالرأى والعمل النافذ ؛ ولكنه لم يخسر كثيرا بما فاته من الدهاء ، ولم يكن ليربح كثيرا إذا استوفى منه أكبر نصيب !..

(عبقرية الإمام ١٠١ـ١٠٣)

لأنه قد اجتمع فى أصحابه كل أسباب الخسران وإذهاب النصر .. وقد علم ذلك ، فقال يصفهم ويخطب فيهم حزينا محسورا :

« أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم . كلامكم يوهى الصم الصلابَ ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم !.. أعاليل بأضاليل ، دفاع ذى الدّين المطول (كما يدافع المدين المماطل) ، أى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ! ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ! ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل (سهم مكسور فى موتر الوتر لا ينطلق ولا يقتل) ! أصبحتُ والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طِبُّكم ؟ القوم رجال أمثالكم . أقولا بغير علم ؟ وغفلة من غير ورع ؟ وطمعا فى غير حق ؟! (عبقرية الإمام ٧٣)

إنها نفثة مكلوم ، وضيق مكتوم ، فما استراح قلبه ولا نامت عينه منذ ولى الأمر وقاسى تفرق أهوائهم ، وتعللهم الباطل ، وعنادهم المماطل ، وجهلهم الفاضح وورعهم الكاذب !.. وعجز عن علاجهم ،

وناله منهم النصيب الخاسر ؛ فأصبح لا يصدق قولهم ، ولا يطمع فى نصرتهم ، ولا يهدّد بهم العدو ولا يتوعده . وكيف يفعل ، وهم أعداء أنفسهم ، قبل أن يكونوا أعداءه ، وظلموا أنفسهم قبل أن يظلموه ؟!

لقد استراح بفراقهم ، ورضى بلقاء ربه ورضوانه !..

لـكنهم عاشوا بعده يقاســون الذل والهوان ، ويدفعون ثمن التفرقة والخذلان من حرياتهم ، ومن دمائهم ومن أموالهم ومن كرامتهم ، على يد زبانية معاوية بن أبى سفيان !..

(وبعد) فهل أخفقت الخلافة ؟ وهل أخفق علىّ بهذا المصير ؟

لم يخفق علىّ ولم تخفق الخلافة !.. بل أخفق الناس والرعية ، لأن عليًا لم يفته شىء من القيام بالواجب ، وردّ الأمر فيه إلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين من قبله . فإذا كانت الظروف قد غلبته ، وأخلاق الناس قد قهرته ، وسوءاتهم قد أعجزته ، فذلك لا يُلام عليه ولا يُعاب به ؛ بل اللوم واقع عليهم ، والعيب نازل بهم ، لأنهم لم يفطنوا إلى صدق مبادئه ، وحرصه عليهم ، وسهره على راحتهم : يؤثرهم بالخير على نفسه ، ويعـانى الآلام والمتاعب من أجلهم !.. ولكنهم عجزوا عن الانتصار على أنفسهم ، وسيطرت عليهم أهواؤهم : فريق عزفوا عن الدنيا ، وآثروا الآخرة فامتلـكوها بثمن غالٍ هو الخلق والدين ، وفريق أطاعوا الهوى والغرور والشيطان فتعمدوا العناد والجدال الباطل وعجزوا عن البحث عن الحق والخضوع له والاهتداء بهداه !.. ولقد سأله رجل منهم بعد تفرق أصحابه :

لِمَ لم يختلف الناس على أبى بكر وعمر ، واختلفوا عليك ؟ .

فقال : لأنهما كانا يليان مثلى ، وأنا ألِى مثلك .

فشقوا بأعمالهم ، وشقى بها الناس من بعدهم ، ولا يزالون فى شقاء حتى يومنا هذا ، لأنهم هدّوا ركنا مكينا كان يأوى المؤمنون إليه فيجدون حرما آمنا ، وظلا ظليلا ، وعدلا رحيما ، ونورا هاديا ، وصراطا مستقيما .

لقد نسوا تعاليم ربهم ، وهدى رسولهم ؛ فساروا على غير علم وهداية ، وتخبطوا فى ظلمات الحياة بين مطامعها ومفاتنها ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق التى تنهال عليهم من كل ناحية ، ويرسل عليهم الظلم سياطه فى كل لحظة ، فحرموا حرية الرأى وحرية الاعتقاد ، وهانت عليهم كرامتهم وإنسانيتهم ، يسوقهم الطغاة والظالمون دون أن يجدوا لهم وليا ولا نصيرا .

فإذا أردنا إعزازاً لدنيانا ، وإسعادا لأخرانا ، وخروجا من ضياعنا ، وقوة من ضعفنا واستخزائنا ، وتحريراً لضمائرنا ، وجمعا لشملنا ، وعلاجا لفرقتنا وتناحرنا ، وعلاجاً لأدوائنا ؛ فلننظر فى كتاب ربنا ، وسنة نبينا ، ليصف لنا الدواء ، بعد أن يحدد لنا الداء ، وقد قال نبىُّ الحق صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا ،
لَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا : كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِى . »

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ـ وآلِهِ وصَحْبِهِ ـ وَسَلَّمَ :

« وَلَنْ يَصْلُحَ آخِرُ هٰذِهِ الأُمَّةِ ، إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُها : كِتابُ اللهِ وَسُنَّتِي »

فما هى هذه الأسباب التى فرطوا فى التمسك بها ، فصار الناس إلى الصورة المحزنة التى صوّرها هذا الكتاب ، والذى قبله : صورة الفتنة المهلكة المدمرة لكل غال فى حياة المسلمين ؟! صورة الحياة فى جحيم الفتنة الكبرى ؟

١ — التحذير من الدنيا :

قال حكيم بن حزام : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطانى .. ثم سألته ، فأعطانى ، وقال :

« يَا حَكِيمُ : إِنَّ هٰذا خَضِرٌ حُلْوٌ ! فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخاوَةِ نَفْسٍ (رِضاها وَجُودِها) ، بُورِكَ لَهُ فِيهِ !..
وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرافِ نَفْسٍ (شَرَهِها وَتَطَلُّعِها) ،
لَمْ يُبارَكْ لَهُ فِيهِ ، وَكانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ !..
والْيَدُ الْعُلْيا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى . »

قال حكيم : فقلت يارسول الله ، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً . (لا أكلفه) . (صحيح البخارى ٤ / ١١٣)

فالمؤمن : عزيز النفس ، لا يعبد المال ، ولا يطلبه لشهوة التملك ؛ بل للانتفاع من طريق شريف .

وقال عبد الله بن عمر :

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى عُمَرَ ..

فيقول له عمر : أعطه ـ يارسول الله ـ أفقرَ إليه منى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ (تَمَلَّكْهُ) أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ ..

وَمَا جَاءَكَ مِنْ هٰذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ (سائِلٍ) ؛

فَخُذْهُ ، وَإِلَّا فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ . »

قال سالم : فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئًا ، ولا يرد شيئا . (المسند : ٨/١١٧ ، ١١٨)

هكذا المسلم ، لا يجرى وراء المال ، يسأل عنه فى كل طريق ، يذل من أجله نفسه ، بل إن أتاه بعزة وشرف وقناعة نفس ، فليمتلكه لينتفع به وليتصدق منه .

فهل تأدب بذلك الأدب الذين تهالكوا عليه وخانوا وغدروا وأثاروا الفتنة ، وأراقوا الدماء فى سبيله ، وأذلوا أنفسهم لمن بذلوا المال ، لمن سلك طريق الضلال ؟

(٢) النهى عن مُفارقة الجماعة :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال :

قال النبى صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ ، فَإِنَّهُ ما أَحَدٌ يُفارِقُ الْجَماعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتَ ، إِلَّا ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً . »

(المسند ٤/٢٤٥ ، ٢٤٦)

فهل حرص أصحاب علىّ على الجماعة ، حين خرج عليه الأشعث ومن معه من طلاب الدنيا ، والخوارج من أدعياء التدين والعبادة ؟ بل وحاربوه وأشقوه ؟! ترى أى مكروه نالهم منه ؟ .

وهل حرص معاوية وأنصاره على وحدة الجماعة ، والوقوف إلى جانب الإمام الذى ارتضاه معظم المسلمين ؟ أم حاربوه ، وادّعوا عليه ، وسفكوا دماء المسلمين لمرض فى قلوبهم ؟!

(٣) التحذير من الفتنة :

كان رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم يرى بعين الوحى ما تقع فيه الأمة من حيرة وتخبط فى طلب الحق فلا تهتدى إليه ، وتجمع أسباب الخلاف والقتال ، فحذر من المشاركة فى إقامة هذه الفتن وإشعال نيرانها ، ولم ينه عن محاربة الظالمين الخارجين على الإمام ، بل بيّن سوء مصير هؤلاء الخالعين للطاعة والبيعة .

روى سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

« ستَكُونُ فِتْنَةٌ : الْقاعِدُ فِيها خَيْرٌ مِنَ الْقائِمِ ! والْقائِمُ فيها خَيْرٌ مِنَ الْماشِي ! والْماشِي فيها خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي !.. »

قيلَ : إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي ، وَبَسَطَ إِلَيَّ يَدَهُ لِيَقْتُلَنِي ؟

قالَ : « كُنْ كابْنِ آدَمَ . »

[رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والحاكم عن سعد]

يريد عدم إثارة الفتنة ، أو المشاركة فى زيادة شرها ، حتى لو أن أحدهم دخل عليه بيته ليقتله فى الفتنة ، كان هو ابن آدم المقتول ، حتى لا يتسع شرها !..

وقال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، محذراً من خلع البيعة والخروج على الإمام :

« مَنْ نَزَعَ يَدَهُ مِنَ الطَّاعَةِ ، فَلا حُجَّةَ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ » .

(المسند ٨ / ٩٩)

وقال عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام :

« مَنْ ماتَ وَقَدْ نَزَعَ يَدَهُ مِنْ بَيْعَةٍ ،
كانَتْ مِيتَتُهُ مِيتَةَ ضَلالَةٍ . »

(المسند ٨ / ٦٨) .

فهل كان الخارجون على أئمتهم يعلمون ذلك ؟ أم أرادوا ميتة الضلال !.. لم يتجنبوا الفتنة ، بل خلقوها !..

وحذر رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم من مساعدة الأئمة الكاذبين الظالمين . فقال :

« سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَأْمُرُونَ بِمَا لا يَفْعَلُونَ ..! فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ ؛ فَلَيْسَ مِنِّي ، وَلَسْتُ مِنْهُ ، وَلَنْ يَرِدَ الْحَوْضَ !.. » (المسند ٨/٧٩) .

فويل للذين أعانوا الكاذبين على خلفاء المسلمين ، المدعين عليهم ما لم يقولوا ، والذين يأمرون ولا يفعلون ، ويساعدونهم على ظلم المسلمين ، وسفك دماء المجاهدين الصادقين !..

وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إِنَّ لِكُلِّ غادِرٍ لِواءً يُعْرَفُ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ ، وإِنَّ أَكْبَرَ الْغَدْرِ غَدْرُ أَمِيرِ عامَّةٍ . » (المسند ٨/٢٨٦) .

فهل عرف ذلك الذين غدروا بعثمان بن عفان ، وعليّ بن أبي طالب ، وأمثالهم ؟!..

ولا يجوز الضرر بالإمام ، ولو رأى الناس منه ما يكرهون ، بل يصبرون وينصحون ، ويؤدون ما عليهم ، ويطلبون حقهم من ربهم ، فقد قال المعصوم عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام :

« سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ : تَرَوْنَ أَثَرَةً . »

قالوا : يارسول الله فما يصنع من أدرك ذلك منا ؟

قال : « أَدُّوا الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ ،

وَسَلُوا اللهَ الَّذِي لَكُمْ . »

(المسند ٥ / ٢٤٢) .

(٤) خشية رسول الله صلى الله عليه وسلم التنافس في الدنيا :

قال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ :

فَرَطٌ لَكُمْ ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ ..

وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْض ..

وَإِنِّي وَاللهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِيَ الآنَ !..

وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ !..

وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي ..

وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا !. »

(متفق عليه من البخارى ومسلم ورواه الإمام أحمد) .

فهل ذكر ذلك المتنافسون في غرض الدنيا ، وأذهبوا دينهم فيها ؟!

(٥) المساواة :

المسلمون جميعاً سواء ، إلا بالتقوى وخوف الله .. قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ ، لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى . »

ومن المساواة فى الإسلام الأخذُ على يد الظالم وإنصاف المظلوم ، فلا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يخافُ إلا ذنبه . قال تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ .

وتستلزم المساواة تكافُل المسلمين في ضروريات الحياة ، فلا محتاج ولا جائع ولا عريان . وبهذا يتحققُ تمتع المسلمين بطيبات الحياة المباحة :

« وَاللهِ لا يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ : مَنْ باتَ شَبْعانَ ، وَجارُهُ جائِعٌ !..

مَنْ كانَ عِنْدَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ ..

وَمَنْ كانَ عِنْدَهُ فَضْلُ زادٍ ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زادَ لَهُ . »

فذكر الرسول الكريم فى هذا الحديث من المال ، حتى لم يعد لأحد منا فضل فيما زاده ، وقد نظم الإسلام ذلك التكافل وحدّد وسائله .

(٦) العدالة :

العدل فى كل شىء أساس فى الإسلام .. قال تبارك وتعالى

﴿ إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ .

ومن معانى العدل : إعطاء الحق ، والإحسان : زيادة على الحق .

قال تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ .

وخوّف الرسول صلى الله عليه وسلم من الظلم ، فقال :

« إذا حَكَمْتُمْ فاعْدِلُوا ، وإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا ؛

فَإِنَّ اللّٰهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . »

« مِنَ الْعَدْلِ أَنْ لا يَظْلِمَ أَحَدٌ أَحَدًا .

إِنَّ اللّٰهَ لا يُقَدِّسُ أُمَّةً لا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيها حَقَّهُ

مِنَ الْقَوِيِّ ، وَهُوَ غَيْرُ مُتَعْتَعٍ . »

« إِنَّ اللّٰهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ! »

(٧) الشورى :

لا استبداد ولا قهر بين المسلمين ، ولا انفراد برأى . قال تعالى

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ .

وعلى المسلمين اتخاذ الوسائل المحققة لكل هذه المبادئ الجليلة .

(٨) والحاكم ما للمسلمين من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ؛ فلا يخص نفسه بشيء من دون المسلمين :

مَن أحقُّ بهذا المال ؟

مرّت بالنبي صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم إبل الصدقة .. فأخذ بيده وبرَة من جنب بعير ، فقال لواحدة من أهل بيته :

« ما أَنْتِ بِأَحَقَّ بِهٰذِهِ الْوَبَرَةِ مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة : أحَبُّ الناس إليه ، حين طلبت خادما ـ وقد مَجَلَتْ يداها من الرّحا ـ واستقى عليٌّ حتى تعب صدرُه !.. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا أُعْطِيكُمْ وَأَهْلُ الصُّفَّةِ تَلْوِى بُطُونُهُمْ مِنَ الْجُوعِ ! »

فحاجات المسلمين مقدمة على ما عداها .

(٩) أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ :

قال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« إِنَّ اللهَ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وُجُوهًا مِنْ خَلْقِهِ :

حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ فِعالَهُ ، وَوَجَّهَ طُلَّابَ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ ، وَيَسَّرَ عَلَيْهِمْ إِعْطاءَهُ ، كَما يَسَّرَ الْغَيْثَ إِلَى الأَرْضِ الْجَدْبَةِ ، لِيُحْيِيَها وَيُحْيِيَ بِهِ أَهْلَها !..

وَإِنَّ اللهَ تعالىٰ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ أعداءً مِنْ خَلْقِهِ :
بَغَّضَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ ، وَبَغَّضَ إِلَيْهِمْ فِعالَهُ ، وَحَظَّرَ إِلَيْهِمْ
إِعْطاءَهُ كَما يَحْظُرُ الْغَيْثَ عَنِ الْأَرْضِ الْجَدْبَةِ ،
لِيُهْلِكَها وَيُهْلِكَ بِها أَهْلَها ، وَما يَعْفُو أَكْثَرُ ا.
إِنَّ اللهَ تَعالَى اسْتَخْلَصَ هٰذا الدِّينَ لِنَفْسِهِ ..
وَلا يَصْلُحُ لِدِينِكُمْ إِلَّا : السَّخاءُ وحسْنُ الْخُلُقِ ؛
فَزَيِّنُوا دِينَكُمْ بِهِما . »

* « مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيا والْآخِرَةِ . »

* « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ . »

* « مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ .. وَمَنْ لا يَغْفِرْ لا يُغْفَرْ لَهُ ..
وَمَنْ لا يَتُبْ لا يُتَبْ عَلَيْهِ . »

(١٠) التكافل الاجتماعى الإسلامى الذى تفرضه المساواة فى الإسلام والذى طبقه خلفاء الإسلام ، وسموه العطاء ، يتناول كل ضروريات الحياة من طعام وكساء ومسكن وعلاج وتعليم وترويج ، لا يمنع من التفاضل فى الكسب الحلال ، والأجر الحلال مقابل الجهد والمهارة ..

قال تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ .

* ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ .

ويُنفق المال فى المصارف الحلال ، ولا يستغل ولا يكنز ، ويؤدى فيه حق الله الذى يسدّ حاجات الناس والمجتمع .. قال تبارك وتعالى :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ .

وقد فصّل فقهاء الإسلام ذلك كله ، ولا مانع لمن أراد الزهد فى الحياة أن يزهد : يزهد عن غنى وقدرة ، لا من فقر وعجز .

أُتِيَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِعَبْدٍ مِنْ عِبادِهِ ، آتاهُ اللَّهُ مالًا ..

فقالَ لَهُ : [ما عَمِلْتَ فِي الدُّنْيا ؟]

فقالَ : ما عَمِلْتُ مِنْ شَيْءٍ يا رَبِّ ! . إِلَّا أَنَّكَ آتَيْتَنِي مالًا ، فَكُنْتُ أُبايِعُ النَّاسَ (يعنى هو رجل تاجر) .. وَكانَ مِنْ خُلُقِي أَنْ أُيَسِّرَ عَلَى الْمُوسِرِ ، وَأُنْظِرَ الْمُعْسِرَ .

قالَ اللَّهُ تبارك وتَعالَى :

[أَنا أَحَقُّ بِذٰلِكَ مِنْكَ : تَجاوَزُوا عَنْ عَبْدِي] .

(١١) تطبيق هـذه المبادئ وغيرها من مبادئ السلوك والخلق الإسلامى تقوم على الضمير الذى يخشى الله لا الناس ، والذى يؤمن بلقاء الله والوقوف بين يديه لتقديم الحساب وللسؤال عن كل حق عليه : لنفسه ، ولأهله ، وللمجتمع ، ولمن يرعاه ، حتى البهائم والجماد !..

والسبيل الوحيد لذلك هو ما صنعه رسول الله صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم من التربية والتثقيف والتنشئة على مبادئ الإسلام ، والتأديب عليها صغيراً حتى ينشأ مسلماً فاضلاً ، وكبيراً حتى ينزجر ويرتدع عن المعصية .. قال تبارك وتعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ،
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

تقوم بالمهمة السابقة وتعاونها : كلُّ وسائل التربية والتعليم والإعلام ، حتى تستقر هذه المبادئ في الضمير ، تُساير المسلم وتُراقبه وتُوجهه ، ولا يقوم في المجتمع ما يُناقض التربية الدينية الإسلامية ، فيهدم ما تبنيه هذه التربية !..

(١٢) ثم يأتي التنظيم والتدبير للتطبيق في قوانين وقواعد تحقق أهداف الإسلام في الحكم والحياة الاجتماعية ، وتحقق الأمن والأمان والرضا والسعادة في الدارين .. قال تبارك وتعالى :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ . رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

وَفِّقِ اللَّهُمَّ أُمَّتَنا لِما فِيهِ خَيْرُها وَخَيْرُ الْعالَمِينَ ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ .

الخميس ٦ من ربيع ثاني ١٤٠٣ هـ — محمد عبد الله حواء

المراجع

١ — صحيح البخارى : للإمام محمد بن إسماعيل البخارى
كتاب الشعب

٢ — المسند : للإمام أحمد بن حنبل — دار المعارف

٣ — تاريخ الطبرى : لمحمد بن جرير الطبرى

٤ — مروج الذهب : للمسعودى ـ طبعة كتاب التحرير ،
والمطبعة البهية

٥ — الفتنة الكبرى : الجزء الثانى د. طه حسين ـ دار المعارف

٦ — عبقرية الإمام : الأستاذ عباس العقاد ـ سلسلة اقرأ

٧ — فقه السيرة : الشيخ محمد الغزالى ـ دار الكتاب العربى

٨ — بنات النبى : للدكتورة بنت الشاطئ ـ كتاب الهلال

٩ — خاتم النبيين محمد : لمحمد خالد . (صاحب المصريات)
دار الكتاب العربى



طبع من فيض الله تعالى

هدية لحضرة النبي المصطفى :

سيدنا : محمد

عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

داعين المولى عزت وجلت قدرته :

أن تؤتي سيدنا : محمدا

الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ،

وأن تبعثه – اللهم – مقاما محمودا الذي وعدته ،

الذي إذا سأل أعطيته ، وإذا طلب أجبته ..

إنك سبحانك لا تخلف الميعاد . . .

* * *

غفر الله لنا ، ولوالدينا ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات ..

والصلاة والسلام على سيدنا : محمد

خاتم الأنبياء والمرسلين .



مطبعة الكيلانى

المدير المسئول : رشاد كامل كيلانى

٢٢ شارع غيط العدة - باب الخلق

ت ٩١٨٥٩٨